فى الأدب الجاهلى

الأستاذ الدكتور
طلعـــت صبح السيـــد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعـــوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبعـــهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فلاشك أن شعر العرب بصورته التى وصلت إلينـــا هـــو الأثر الوحيد والعظيم الذى حفظ لنا حياة العرب فى الجاهلية .

فإذا كان هناك من الأمم من تخلد مآثرها بغير الشعر فـــإن العرب وبخاصة فى العصر الجاهلى إنما تخلد مآثرها وتنتقل إلى الأجيال المتعاقبة عن طريق الشعر فحسب ، فقد كان الشعر عنـــد العرب فى الجاهلية هو ديوان علمـــهم ومنتـــهى حكمـــهم ، بـــه يأخذون وإليه يصيرون ، ولذلك قيل : الشعر فى العصر الجاهلى ديوان العرب ، وسجل أخبارهم ، ومرآة حياتهم .

ولاغـــرابة فـــى ذلك ، فالشـــعر أكبـــر علـــوم العـــرب، وأوفر فنون الأدب حظا عندهم ،وقد أودعوه وقائعهم ومفـــاخرهم وأيامهم ، وعلى صفحته تتراءى حالتهم الخلقيـــة والاجتماعيـــة والعقلية والدينية ، ومن خلال قصائدهم نعرف أيامهم وتاريخهم ، ونقف على أحسابهم وأنسابهم وحروبـــهم ، كمـــا نقـــف علـــى الأوصاف التى وصفوا بها بيئتهم ، إنه تـــراث يثـــير الإعجـــاب والدهشة ، تراث اشترك فيه الرجال والنساء والسادة والصعـــاليك.

وهذا الكتاب يضم مختارات مما جادت به قرائح أعلام الأدب فى العصر الجاهلى ، وقد التزمت فيه بالتوجيهات والأصول المتعلقة بالتأليف ، راجيا الله سبحانه وتعالى أن يجد القارئ فيه ما يوضح له الكثير عن الحركة الأدبية فى هذا العصر .

وقد حرصت كل الحرص فى اختيار النصوص على التنويع ، كما حرصت على أن تكون الأحكام الأدبية مستنبطة من النصوص نفسها ، وحرصت كذلك ــ ونحن نتجول فى رياض النص الأدبى ــ على أن نوضح صلة النص بالبيئة ، والمناسبة التى قيل فيها النص، كما وضحنا الأفكار وناقشناها لتكون المعلومات مترابطة .

وقد سلكنا فى هذه الدراسة طريقة لاهى بالموجزة المخلة ولا الطويلة المملة ، لتكون للقارئ المتوسط زادا ولأخيه المتوثب معلما ومنارة على طريق البحث والاستنباط ، وأرجو أن تكون محاولتنا هذه بادرة لعمل نقدى ، أرجو أن أتجه إليه بالتفصيل والتدقيق والتمحيص فى فرصة قادمة بإذن الله تعالى .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

الأستاذ الدكتور

طلعت صبح السيد

المنصورة ــ شوال ١٤٢٢ هـ

يناير ٢٠٠٢ م

مدخل إلى دراسة النصوص الأدبية

دراسة أى نص من النصوص الأدبية عمل إنسانى يعد ذا درجة كبيرة من الأهمية فى مجال الدراسات الإنسانية ، وهو عمل يفترض فيه الكمال ، أو أن يقترب من الكمال ويأخذ منه نصيبا كبيرا .

وهذا العمل يتطلب مقومات ووسائل وأدوات من العلوم والفنون ، حتى يؤدى على وجهه الصحيح ، وعلى هذا فلا يقوم به خير قيام إلا ناقد أدبى له من الإحساس والقدرة على التذوق نصيب ، وله من القدرة على الحياد فى إصدار الأحكام الأدبية نصيب آخر ، ويجب أن يتوفر له مع هذا وذاك ما لا يسع الناقد جهله من العلوم والمعارف والثقافات التى تتطلبها عملية النقد .

وسوف نتحدث فى الصفحات التالية عن طريقة متميزة فى تناول النصوص الأدبية ، تحرينا أن نجعلها ثقافة أدبية مشوقة تحقق المتعة والفائدة معا .

وقبل أن نأتى بأمثلة للدراسة الأدبية نعرض فيها قصائد من أجمل ما قيل فى الشعر الجاهلى ، يحسن بنا أن نستعرض الخطوات التالية :

أولا : طريقة الدراسة الأدبية

وطريقة الدراسة الأدبية تدفع بنا إلى إحصاء عدد من المناهج فى تحليل النص الأدبى للنظر فيها ، والتأمل الطويل فى خطواتها ، ثم نتجه بعد ذلك إلى تطبيق منهج من مناهج تحليل النصوص على ما نختار من نصوص أدبية ، لتكون دراسة

ميدانية تطبيقية تعمق النظر ، وتزيد القدرة التطبيقية دربة وعمقا .

وإذا ما أعطيت للطالب قطعة أدبية ، وطلب منه أن يكتب عنها دراسة أدبية فعليه أن يتتبع الخطوات التالية :

(١) إعطاء نبذة مختصرة عن صاحب النص ، مع بيان المناسبة التى قيل فيها .

(٢) تحديد غرض النص ، وتحديد موضوعه ، ثم تقسيم النص إلى أفكاره الرئيسية .

(٣) يشرح الطالب النص شرحا تفصيليا ، ويحرص على توضيح الغامض من مفرداته .

(٤) ينظر الطالب أسلوب النص ، ويأخذ فى تأمل ألفاظه وتراكيبه ، وصوره وتشبيهاته ، ثم يتتبع معانى النص ، وينظر ما تتركه هذه المعانى من أثر فى النفوس .

ثانيا: تحليل النصوص الأدبية

تحليل النصوص الأدبية هو تفسيرها، وتحليلها، وتعليلها، وإظهار ما فيها من قيمة تمهد السبيل إلى التعرف على مظاهر القوة، وأسباب الضعف فى النص الأدبى.

وهذا العمل وظيفة جليلة الشأن، عظيمة القدر، تعود بالفائدة على النص الأدبى من جانب ، وعلى الأدباء والنقاد ، والناشئة من جانب آخر ، ومن أجل هذا ينبغى أن يقوم بهذا العمل ناقد

أدبى له من القدرة على التذوق نصيب كُبير ، وله مـــن القــدرة على الحياد فى إصدار الأحكام الأدبية نصيب كبير كذلك ، وفوق هذا وذاك لديه موفور من العلوم والمعارف ، والثقافات ، التـــى تتطلبها عملية النقد الأدبى.

وإذا كان المبدع يبذل جهداً فى إبداعه ، فإن النص الأدبـــى يَحتاج لتذوقه وفهمه إلى قدرة خاصة وجهد خاص ، وهذا يؤكـــد أن تذوق الأدب متوقف على القراءة المتأنية، وعلى طبيعة خاصة فى الناقد ، وهذا يدفع بنا إلى الحديث عن أدوات الناقد، ومنهجـــه فى التحليل والدراسة الأدبية للنص الأدبى.

على أن النقاد ــ قديما وحديثا ــ قد أفاضوا فى الحديـــث عن أدوات الناقد الأدبى التى يجب أن تتوفر لديه ، والتى تمكنـــه تمكينا دقيقا من ممارسة وظيفته النقديـــة الجليلـــة ، لدرجـــة أن بعضهم قد بالغ فى الإكثار من هذه الأدوات أيما مبالغة ، وذهـــب فيها مذاهب بعيدة الغور .

وقد تعارف العلماء على صفات معينة لابد أن تتوفر فـــى الناقد الأدبى ليستطيع ممارسة هذه المهمة النقدية ممارسة البصير القادر على النظرة الصحيحة الصائبة ، ودعا ذلك بعضهم إلـــى رفض الأحكام التى يصدرها ناقد ليس له هذا القدر من الصفـــات حتى ولو جاءت نتيجة للصدفة وليست نتيجة للعلم المنظم ، ذلـــك لأن الصدفة إن أصابت فىمرة فإنها معرضة للخطأ فى مـــرات أخرى ، وليست أساسا علميا تنبنى عليه الأحكام .

أدوات الناقد

عرفنا أن النقد يبحث عن الخصائص الفنية ، وأنه يميز القيم الأدبية فى كل عمل من الأعمال التى يتناولها. وحتى يكون الحكم على الآثار الأدبية صحيحا ومقبولا ، وحتى يستطيع الناقد أن يؤدى فائدة للحياة الأدبية لا بد أن تكون لديه أدوات تمكنه من أن يؤدى ـ وظيفته خير أداء ، ومن هذه الأدوات :

١- الثقافة :

وحين نتحدث عن الثقافة اللازمة للناقد فإننا لا نستطيع أن نفرق بأى حال من الأحوال بين الثقافة اللغوية والثقافة الأدبية والثقافة بمعناها العام.

فالثقافة اللغوية تعين الناقد فى معرفة الألفاظ ووسائل صياغتها ، وما يمكن أن تؤديه من المعانى ، وما تحملته من معان على مر الزمان ، كما تعينه على معرفة أنواع التصرف والمجاز التى اصطنعها أصحاب اللغة أو جماعة الأدباء .. ذلك كله هو سبيل الناقد الوحيد للحكم الصحيح.

والحقيقة أنه قد أشار كثير من نقادنا القدامى إلى ثقافة الناقد ورأوا أنها القاعدة التى يمكن أن ينطلق فيها كل فن مثقف وكل نقد صوابى ، وهذه الثقافة هى التى تؤهل الناقد ـ أكثر من غيرها ـ لعملية التصدى لدراسة الإبداع ، وإعطاء أساس نقدى سليم[1].

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبه ص٢٠ و١٨٤ طبع فى مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة بريل ١٩٠٢م وانظر كذلك طبقات الشعراء لابن المعتز ص٩٥ وما بعدها ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة.

ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عن الطريق التى تحقق للناقد تلك الثقافة[١].فهى طرق كثيرة ومتعددة ، منها كثرة الاطلاع وإدامة النظر فى الآثار الأدبية ، فهذا هو السبيل الذى يوصل إلى العلم بالأدب ، ويتخرج به الناقد المتخصص الذى يكون رأيه أدعى إلى الاحترام.

يروى الآمدى فيقول :

"قيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشىء من الشعر ، وتقول: هو ردىء والناس يستحسنونه !

فقال : إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فاجهد جهدك أن تنفقه فانه لا ينفعك قول غيره : إنه جيد.

وقد عقب الآمدى قائلا :

"فمن سبيل من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض به وطول الملابسة ويقبل منه ما يقوله ، ويعمل على ما يمثله ، ولا ينازع فى شئ من ذلك ، إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صنعة صناعتهم ، ولا يخاصمهم فيها ، ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظيرا فى الخبرة وطول الدربة والملابسة"[٢].

---

(١) ليس مقصودنا من وجوب الثقافة النقدية أن يلتزم الناقد بكل رأى سلف ، أو أن يكون مقلدا لمن سبقوه فى النقد ، كلا فمثل هذا العمل يقضى على شخصية الناقد ، ويحد من حريته.

(٢) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى : ٤١٤/١. تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م.

ومن الثقافة اللازمة للناقد الأدبى المعرفة بأصول النقد وقواعد الأدب ، والمعرفة أيضا بالمدارس الأدبية والمذاهب النقدية واتجاهات كل منها ، والوقوف على التراث النقدى الذى خلفه النقاد القدامى الذين سبقوه ، إذ الحال أنه لا توجد صناعة من الصناعات إلا ولها ثقافة من جنسها ، وإفادة من التجارب والخبرات التى سبقتها.

ومنها كذلك المعارف الأدبية والإلمام بالعلوم والفنون ، ومعرفة حياة الأدباء وبيئاتهم وثقافاتهم ، ونوازعهم ، وسائر العوامل المؤثرة فى تكوين عملياتهم وتوجيه عواطفهم.

٢- الموهبة :

لا شك أن الموهبة ضرورية فى الفنون ، وهذه الثقافات المتوفرة للناقد مع ما لها من أثر فى صناعة النقد لا تجدى نفعا إذا لم يساندها طبع أصيل وموهبة فذة ، إذ بدون الموهبة لا ينبغ فنان ولا يصح فنه.

على أن الموهبة على خطرها ، وبعد أثرها لا تكفى ما لم تصقل بثقافة العصر ، والدراية الكاملة بما يجرى فى المحيط الفنى من تيارات ومدارس ومذاهب ، ومن الضرورى أن يطلع الناقد على كل هذه التيارات ويحيط بها ، لتثقيف موهبته وليتناول فنه حين يتناول وهو واع بثقافة العصر ومحيط بمستحدثاته ، فى هذا المجال ، ويعالج كل ما يعرض له بثقة واقتدار ، إذ لا شك أن الذوق المدرب والمثقف هو خير وسائل الحكم النقدى ، ولا يخفى على أحد أن الناقد الخالى الوفاض من كل تلك المعارف يكثر زلله ، ويكون ضرره فى الحياة الأدبية أكثر من نفعه.

٣- والذى ننشده فى الناقد الموضوعى :

أن يتوفر له ما ينبغى للقـــاضى مـــن أدب النفـــس ، وتزكيتـــها بالفضائل الإنسانية ، من عدالة وإنصاف وعفة ، وأن يكـــون قـــادرا على التحكم فى نوازع نفسه وأهوائها ، حتى لا يجرفه شعور الحب إلـــى الإسراف فى الثناء ، ولا شعور العداوة على النيل من الأعمال الجيدة.

إن النقد الأدبى السليم هو الذى يضع العمـــل الأدبـــى موضعـــه الجدير به ، وهو دون شك عمل من الأعمال الإيجابية البناءة فى صـــرح الحياة الأدبية ، فإذا تنكب الناقد الطريق ، وفقـــد روح العدالـــة وحـــب الإنصاف ، فإن هذا يعتبر خيانة ، للأمانة التى حملها ، والرسالة التـــى لم يقدرها حق قدرها ، هذا فضلا عن أن عمله هذا يخفى وجه الحقيقـــة التى هى مطلب كل إنسان عاقل رشيد.

ومن هنا نجد أن النقد الأدبى له قيمة لا ينكرها أحد ، كما أن لـــه أثرا فى الأديب المنشئ ، وفى القارئ للأدب.

يقول الدكتور/ ماهر حسن فهمى :

"وإذا كان الأدب صورة الحياة بما يرسمه لها مـــن معـــالم قويـــة بارزة وبما يلقيه من ضوئه الخالد على جوانبها المظلمة ، فإن النقد هـــو الجانب الآخر لصورة الحياة بتصحيحه لبعض أجزاء الصورة أو تكميلـــه لها ، أو توجيهه للفنان نفسه ، أو عرض صورته للناس.

والقارئ لا شك حين يطلع على النقد ، يضم إلى تجاربه تجربة جديدة لفرد أكثر تجارب وأرشد عمقا وأوسع ثقافة"(١).

ويقول الدكتور/ شوقي ضيف :

"ونحن لا نشك في أن نقد الآثار الأدبية شيئ صعب ، لأنه لا يعتمد في جوهره على قواعد مقررة ثابتة ، ولأنه يحتاج إلى ذكاء ومهارة في العرض ، فلا يكفي أن يكون الإنسان دارسا لنظريات النقد الحديثة ومناهجه ، بل لا بد أيضا أن يكون من دقة الذوق وجمال الأداء بحيث يصوغ نقده صياغة تروق القارئ ، وخذ مثلا تجربة كيميائية يعرضها علماء مختلفون فإن كل عالم كيميائي يعرضها بنفس الطريقة ، إذ يسجل نفس الظواهر ونفس النتائج ، وهذا ما لا يحدث في النقد ، فلكل ناقد عرضه ، ولكل ناقد ذوقه وطريقته في الأداء. ويتفاوت النقاد في ذلك حسب قدرتهم الأدبية ، ومهاراتهم ، وحساسيتهم، ووعيهم بما يتطلبه الموضوع منهم وعيا يجعلهم ينوعون طرقهم كلما ألموا بأثر أدبي.

وما أظن صفة ينبغي أن يتحلى بها الناقد تبلغ صفة العدالة في وزنها وقيمتها ، إنه حكم أمين ، فينبغي أن يضع في يده موازين عادلة ورشيدة لا تميل مع أي هوى ولا أي تعصب ، ومن أجل ذلك كان حريا به أن لا ينقد أثرا أدبيا لا يتفق ومثله في الحياة حتى لا يجوز عليه في حكمه وتقديره. والناقد الحق لا يرفع شيئا فوق قيمته ، ولا ينزل شيئا دون قيمته ، وإنما يحق الحق للصديق وغير الصديق ، فلا يثني إلا في مكان الثناء ، ولا يزري إلا في مكان الإزراء وتلك مسئولية عليه أن يتحمل تبعتها ، وينهض بها في غير تقصير"(٢).

---

(١) المذاهب النقدية ص٥. دار الطباعة الحديثة ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م.
(٢) في النقد الأدبي ، ص٥٧.

ويقول الأستاذ أحمد أمين :

"فالناقد كثيرا ما يعطينا وجهة نظر جديدة تماما ، وكثيرا ما يـؤدى مساعدة خاصة بأن يترجم إلى تعبير محدد ، احساسات لنا كنا نحس بـها إحساسا مبهما غامضا ليس له قيمة علميـة ، فـهو أحيانـا مستكشـف يستكشف أرضا جديدة ، وهو أحيانا رفيق صديق يدلنا على جوانب غير منظورة من الأشياء التى نمر بها فى طريقنا حتى من تلك التى نعرفـها معرفة جيدة. وهكذا يعلمنا أن نقرأ ثانية لأنفسنا بذكاء أعظـم وبتقديـر أعمق ، ثم ليس هذا كل شئ ، فإنه كثيرا ما يؤدى لنا أعظم المسـاعدة حين يتحدى أحكامنـا الخاصـة ويعـارض آراءنـا التـى سـبق أن كوناها ، ولا يقتصر على التعليم بل الإثارة والاستفزاز ، فإذا قرأناه كمـا يجب أن نقرأ الأدب الذى يتناوله بعقل حاضر منتبه فطـن ، فإنـه لـن يكون أمرا هاما ، هل نحن نوافق ما يقوله لنا أم نرفضه. ففى كل حالـة سوف نكسب من تناوله فى عمق النظرة وفى القوة"[1].

ويقول الدكتور محمد السعدى فرهود :

"ولا نقبل أن يرسل الناقد نقده علـى هـواه ، أو يغفـل الـتراث النقدى ، فإن للبشرية منذ عهد الإغريق نظرات ناقدة نافذة ، مـا تـزال إلى اليوم مرادا لطلاب المعرفة ، ومجالا للنقاش والجدل. ولا نريـد أن نفرض على الناقد أن يلم بالتراث النقدى كله ، إذ يكفيه أن ينتقـى مـن

---

(١) النقد الأدبى ، ص١٧٩ ، القاهرة ١٩٤٤م.

هذا التراث ما يصنع له منهجا نقديا ، وحبذا أن يقتنع بأن مسلكه حين ينقد ـ ونقصد مسلكه العلمي ـ لا غبار عليه. ولا نمنع أن يجتهد الناقد فيبدى وجهة نظر جديدة ورأيا مبدعا ، فهذا من حقه ، وإنما نمنع أن يضيع الناقد ذلك التراث النقدى ، لنزوة أو لرغبة تتسلط عليه. ومن هنا نستطرد إلى القول بأنه من غير المقبول لدينا ـ ولدى أى منصف ـ أن نستجيب للدعوات التى تدعونا إلى أن نقطع صلتنا بالبلاغة العربية وبالأعمال النقدية العربية القديمة ، بحجة أن وجهات نظر جديدة قد ظهرت فى أوربا ، فعلينا أن ننقلها إلى ميدان أعمالنا النقدية. ولا نظن أن تلك دعوات مستوية ، ولا أن هذه حجة غير منقوضة ، فمن الصعب أن نلغى ـ أو نهمل ـ مئات السنين من عمرنا الفكرى ، بل إنه أولى لنا أن نعيد فى تراثنا النقدى العربى نظراً ، لعلنا نقف فيه على ذخيرة ، نعيد صياغتها ، أو زادا نفاخر به ..."[1]

ثالثاً : مناهج تحليل النص الأدبى

النقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى تقديرا صحيحا ، وبيان قيمته ودرجته الأدبية ، وعلى هذا فإنه وإن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد ، فإن النقد الأدبى يختص بالأدب وحده ، ويدل هذا التعريف على عدة ملاحظات نذكر منها :

١. أن الهدف الأساسى من النقد الأدبى إنما هو تقدير الأثر الأدبى ببيان قيمته فى ذاته قياساً على القواعد أو الخواص العامة التى يمتاز بها الأدب بمعناه العام أو الخاص.

---

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث ، ص٦.

٢. يدل هذا التعريف على أن النقد يبدأ وظيفته بعد فراغ الأديب من إنشاء الأدب المراد نقده ، فالناقد يتقدم للأدب الموجود بالفعل ، ويأخذ بتفهمه ، ويفسره ، ويحلله ، ويقدره وعلى هذا فالنقد وإن كان يزيد الأدب تهذيبا وصقلا فإنه ليس بمكنته إيجاده من العدم ، وإن كان الإنصاف يقتضينا القول إن عملية إبداع الأدب وتذوقه ونقده قد تتحقق فى نفس أديب واحد موهوب موهبة خاصة.

٣. لا بد للناقد الأدبى ـ لكى يستطيع أن يؤدى وظيفته خير أداء ـ أن يكون على معرفة باللغة وأساليب التعبير بها ، وأن يكون واسع الاطلاع فى الثقافة الأدبية ، وأن يكون كذلك ثاقب النظر ، مهذب الذوق ، قادراً على المشاركة العاطفية مع الأديب .. ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عما تحققه مثل تلك المعارف والصفات للناقد من الفوائد.

٤. وإذا كان للذوق الأدبى اتصال وثيق بما يصدر الناقد عنه من أحكام فإننا يمكننا أن نقول إن للذوق الأدبى دخلا قويا فى باب النقد ، وهو عدة الناقد ووسيلته الأولى ، وإليه يرجع إدراك جمال الأدب ، والشعور بما فيه من ضعف ، وإليه أيضاً نلجأ فى تعليل ذلك وتفسيره ، وبه نستعين فى اقتراح أحسن الوسائل لتحقيق خواص الأدب الرفيع المؤثر وفوق ذلك كله يمكننا أن نقول إن ما ينشئه الأديب إنما هو فى الوهلة الأولى ثمرة ذوقه الأدبى.

وقد اصطلح المحدثون من علماء الأدب على تقسيمه إلى قسمين :

١- الأدب الإنشائى :

وهو مجموعة الأعمال الأدبية التى يؤلفها الأديب شاعرا كـان أم كاتبا. فالقصيدة التى ينظمها الشاعر ، والخطبة التـى يلقيـها الخطيـب على جمهور من الناس ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع مـن الموضوعـات وكذلـك القصـة وغيرهـا .. كـل هـذه مـن الأدب الإنشائى ، فكل أديب من هؤلاء الأدباء ينشئ أدبه لينفـس عـن نفسـه بالتعبير عن تجربته ، وليشارك غيره فى عواطفه وانفعالاته ، ذلك لأنـه يجد فى مشـاركته الشـعورية للآخريـن راحـة لنفسـه ، وإرضـاء لمشاعره ، وقد يعمد الكاتب إلى إبراز الخصائص والمعالم التى تتمـيز بها شخصية من الشخصيات التى يختارها موضوعا لبحثه ، وهذا لـون من ألوان الأدب الإنشائى ، ويسمى "السيرة الذاتية".

٢- الأدب الوصفى :

إذا فرغ الشاعر من نظـم قصيدتـه ، أو الكـاتب مـن إنشـاء مقالته ، وكذلك الخطيب ، والقصاص ، والمؤلف المسرحى ، فإن هـذه الأعمال تعرض بعد ذلـك علـى جمـهور المتلقيـن بقصـد التـأثير فيهم ، وتوجيههم الوجهة التى يرضاها الأديب.

وليس من شك فى أن هذه الأعمال تقع من نفوس المتلقين مواقـع مختلفة ومن هؤلاء المتلقين من يحاول التعبير عن رأيه بالكلمة ، وهـو فى عبارته يفسر ، ويحلل، ويعلل ، وقد يبين ما فى العمل الأدبى الـذى قرأه من مزايا وجودة ، أو رداءة وعيوب ، ويأخذ يعمل علـى إقنـاع قارئه بما اقتنع هو به ، ليحمله إلى التأثر بما أثاره، فيشاركه الرأى بمـا يورد من الأسباب والبراهين.

ومن فنون الأدب الوصفي ما يسمى (تاريخ الأدب) وفيه يفتن الكاتب فى رسم صورة واضحة للحياة الأدبية فى عصر من العصور ، أو فى بيئة من البيئات ، أو فى طور من أطوار الحياة الإنسانية ، أو من خلال اتجاه فنى معين ، أو طريقة معينة من طرق التعبير التى يتناول بها الدارسون الأعمال الأدبية ، وقد يلجأ الكاتب إلى رصد مراحل الحياة الأدبية ، ودراسة العوامل الزمانية والبيئية التى أثرت فى حياة الأدب والأدباء إن ازدهارا وقوة ، أو انحدارا وضعفا.

وفى ضوء مثل هذه الدراسات يمكن رد العمل الأدبى وصاحبه إلى الزمان والبيئة ، فيصبح مرجعا لمن أراد أن يتعرف على ما كان للسابقين من أعمال أدبية من جهة ، وعلى ما بين هذه الأعمال من الصلات التى تقرب بعضها من بعض ، والخصائص التى يتميز بها بعضها عن بعض من جهة أخرى ، وهذا بلا شك جانب له أهميته فى جلاء نواحى الأصالة فى الأدب أو الأديب ، ثم فى الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهاته ، وهذه التأثيرات هى محور دراسات كثيرة ، وعلى وجه الخصوص فى عهد نهضتنا الحاضرة .

وليس من شك فى أننا لاحظنا منذ وقت مبكر التطور الهائل الذى طرأ على الدراسات الأدبية بشكل كبير ، فقد ظهرت دراسات يمكن أن نعتبرها دراسات أدبية جديدة تحتفل بالمنهج الجديد ، وتتأثر بالمناهج الحديثة فى الدراسات الأدبية الحديثة وخاصة فى المناهج الأدبية الأوربية ، ونحن لا نغفل أن أصحاب هذه الدراسات قد أتيح لهم أن يحتكوا بآداب الغرب ، وأن يقفوا على مناهجهم فى الدراسات الأدبية وغيرها[١].

---

(١) انظر تطور النقد العربى الحديث فى مصر ، د/ عبد العزيز الدسوقى ، ص١٧٥ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ .

وعلى ضوء ذلك كله يمكننا أن نقول إن النقد جنس من أجناس الأدب ، وهو لون من ألوان الأدب الوصفى ، يختلف عن الأدب – الإنشائى الذى ينشئه الأدباء المنشئون ويألفونه ، وفيه – أى النقد – يعبر الناقد عن رأيه فى العمل الأدبى ، ويرى فيه الجودة أو الرداءة .. وعلى هذا فموضوع النقد هو الأدب نفسه : القصيدة التى ينظمها الشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى تشغله أو تشغل الناس ، والخطبة التى توجه الناس الوجهة التى يرضاها الخطيب وكذلك المسرحية والقصة والسيرة الذاتية .

والذى يعنينا من هذا كله أن الناقد لا يقدم على تفسير أو تعليل إلا بعد أن يفرغ الأديب من أدبه ، وبعد ذلك يوضع هذا اللون الأدبى بين يدى الناقد ، فيكون مادته التى يدرسها ويتذوقها ، ويطبق عليها الأصول والنظريات التى تعلمها ، ويستفيد فى ذلك كله بتجاربه وخبراته ، وبتجارب وخبرات الآخرين ، ثم يجتهد ليضع اللون الذى يتصدى لنقده فى موضعه .

وإذا كان النقد سبيلنا لإصلاح ما فسد ، والوسيلة المثلى التى تهدى الباحثين إلى أهدى السبل وأسمى الغايات فإنه ينبغى أن يتخلص من الأحكام العامة المرتجلة ، وأن يكون نقدا مبنيا على معرفة ، وحينئذ تكتب المقالات النقدية ، وتؤلف الكتب فى نقد الأدباء ، وإنزال كل منهم المنزلة الجدير بها .

ومن ألوان النقد الأدبى :

١. **النقد التاريخى :** وهو لون نقدى يقف على الصلة التـــى بيـــن الأدب والتاريخ ، ويتخذ من حوادث التاريخ بجميع صوره وســـيلة لتفسير الأدب ، وهذا ما يسمى (بالمنهج التاريخى) .

٢. **النقد الفنى (المنهج النقدى) .**

٣. **النقد الشخصى (المنهج الشخصى) .**

والنقد الفنى هو أخص الألوان النقدية وأقواها لمـــن يريـــد فـــهم طبيعة الأدب ، وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، وهو كما يقـــول الأستاذ أحمد الشايب عنه : "هو النقد حقا ، وما ســـواه مـــن الطريقـــة التاريخية أو الشخصية تفسير ، وإن كان – بلا شك – يعين على صحـــة النقد ، وعلى سلامة أحكامه من الغموض والضلال "[١].

وحين نتحدث عن وظيفة الأدبى فإنـــه يجـــدر بنـــا أن نقـــول إن البعض قد يتحاملون على النقد الأدبى وعلى جماعة النقـــاد ، فيعـــدون النقد عملا لا غناء فيه ، ويعدون النقاد متطفلين علـــى الأدبـــاء الذيـــن ينشئون الأدب ويبتكرونه فى أجناسه المختلفة .

ونحن إذا سلمنا بذلك لكنا قد سلمنا بخطأ كبير وهو ذهـــاب النقـــد الأدبى ، يقول الأستاذ أحمد الشايب : "ماذا يحدث لو ذهب النقد الأدبـــى أو النقـــد مطلقـــا ؟ لا شـــك أن الحيـــاة تنطـــوى إذ ذاك علـــى خطـــأ

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٤٥ .

كبير، وضلال مبين ، وتخضع فى سيرها لآراء أو نظريات طائفة خاصة غير معصومة ولا متناسقة الجهود ، وتمر فاترة وقد تموت فيها المواهب وينادى بذلك الأدباء والفنيون أكثر من كل أحد ، وإلا فمن يرشدهم إلى الحق ، ويعينهم على الكمال ويصرفهم عن الضلال ، ويصل بينهم وبين الناس لعل الناس ينتفعون بالفنون والآداب نفعا سليما عميقا ، ولو ذهب النقد العلمى تعرضت الحياة لمآس مهلكة ، ونتائج زور ، وعاش الناس فى ضلال وأوهام "[1].

ويقول أيضا : "وربما كان النقد الأدبى أحق من سواه بالعناية ، لأن الأدب نفسه أكثر شيوعا ، وأمس بالحياة الاجتماعية ، وأجمع لخلاصات الجهود الإنسانية من سائر الفنون ، وهو بعد ذلك صريح واضح ، درجة الإيجاز والرمز فيه أقل منها فى الرسم والموسيقى والتصوير لذلك كان أبعد أثرا فى حياة الناس . وكان أحق بالنقد والتعقيب ، ومن بين الأدب ونقده تتجلى الحقائق وترسم المثل العليا ، وتتقدم الحياة وتصقل المواهب الإنسانية حتى قال بعض النقاد : إن الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من الأدب نفسه ، أى أنه يمكن أن يعرف الإنسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها ، لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب ، وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٦٩ .

على المجتمع الذى يعيش فيه . لهذا قيل : "إن الحكم على الأدب نفسه هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئا من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ، ويوزن بينها ليستخلص منها صورة صحيحة عن الحالة الاجتماعية" [1].

والحق أن النقد الأدبى صناعة لا غنى عنها مطلقا ، وهذا يدلنا على أهم الوظائف التى تقوم بها صناعة النقد ، ومن هذه الوظائف ما يخدم الحياة الأدبية بصفة عامة ، ويعمل على إثرائها وتنشيطها ، ومنها ما يخدم الفن الأدبى ، ومنها ما يخدم الأدباء أنفسهم – وبخاصة المنشئين منهم – كما يفيد القراء ، وغير ذلك .

ومن تلك الوظائف :

١- أما من جهة أنه يفيد الحياة الأدبية ، فليس من شك فى أنه يؤدى إلى احتكاك الآراء ، واختلاف وجهات النظر ، والأخذ والرد من النقاد الذين تختلف مقاييسهم النقدية ، كما يؤدى إلى تصادم أفكار الأدباء من ناحية والنقاد من ناحية أخرى ، وزيادة تعقب النقاد للأدباء .

وهذا بدوره ينشط الحياة الأدبية ، فالأدب لا يزدهر إلا بالنقاد وهم الذين يوجهونه ، وهم أيضا الذين ينيرون المسالك للأدباء ويوجهونهم نحو الآفاق التى تشرق فيها مواهبهم ، وهذا بدورة أيضا يجعل الأديب يبسط سلطانة على النفوس ، ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان ، ويجعله يتبوأ مكانه اللائق به بين العلوم والفنون وبخاصة فى عصرنا الحديث الذى انصرف الناس فيه إلى الماديات .

---

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٦٩، ١٧٠ .

ويهمنا ان نقول فى هذا المقام إن عدة النقاد فى هذا الدور الـذى يقومون به مع الأدب والأدباء تتمثل فى ثقافتهم العريضـة ، وأذواقـهم الرفيعة ، وعقولهم الواعية، وأفكارهم وتجاربهم التى قبسوها من حياتـهم الحافلة بالاحتكاك والتصـادم ، والتـى أوقفتـهم علـى كـل جميـل بديع ، وعلى كل ضعيف متخلف .

أما من جهة أنه يفيد الفن الأدبى والأدباء فمن الوجوه التالية :

أ. أن النقـد السـليم يقـوم الأدبـاء ، ويوجهـهم الوجهـة الصحيحة ، وينظر فى مقدار ما وفقوا فى إبداعهم ، فإن كـانوا صائبين روج لطريقتهم ووطد لها ، وإن كانوا على غير صـواب نبههم للخطأ ، وأوقفهم على طريق الصواب .

ب. أن يقدر العمل الأدبى ، ويحكم عليه بالجودة أو الـرداءة وفقـا للمعايير النقدية الصحيحة ، وتلك وظيفة كبرى مـن الوظـائف التى يقوم بها النقد الأدبى ، ما دامت للفن الأدبى منزلته الرفيعـة بين الفنون ، فهو فن لا بد أن يحظى بعناية بالغة توقـف علـى روائعه ، وتبعد عنه النماذج غير الرفيعة .

ج. أنه يفسر الآثار الأدبية ، ويحـاول تحليلـها وتعليلـها ، وبيـان الأصول اللازمة لفهمها ، كما يحلل الدوافع النفسية التى كان لـها سلطان على الأديب وهو يؤلف عمله الأدبى .. وهذا كله عمـل يمثل حلقة وصل بين الأدباء من جهة وبين المتلقين مـن جهـة أخرى وقد يكون هذا النقد تسليطا للضوء على أديب مغمـور لا يعرفه الناس .

وفى هذه الحالة لا تكون غاية الناقد تقويم العمـــل الأدبـــى ، أو إصدار حكم عليه ، وإنما تكون غايته أن يصل بيـــن النـــاس والأدبـــاء المغمورين ، فيمكن لمنزلتهم فى النفوس ،ويجعلهم يشتركون فى الحيـــاة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين ، فيزداد نتاجهم بذلك خصبا ، يؤكد ذلـــك أن كثيرا من الأدباء قد يعتبون علـــى النقـــاد إن أهملـــوا أعمالـــهم أو أعرضوا عنها .

د. أنه يعكس للأدباء رأى الناس فيهم ، وهذا من شـــأنه أن يكمـــل الدائرة ، وأن يوثق بين الأديب والناقد والمتلقى ، مما يعين علـــى الفهم ، ويساعد على الإفادة ، فـــإذا بـــالأدب يكـــون واضحـــا جميلا ، وفنا نافعا مفيدا ، وفى هذه الحالة قد يتعدى الأمر إلـــى اقتراح ما ينهض بالأدب ، ويوسع فى آفاقه من فنون جديـدة ، أو أساليب ممتعة ، أو أفكار خصبة وغير ذلك .

٢- ومن جهة أخرى فإن النقد الأدبى هو الوسيلة الوحيدة والمثلـــى لوضع حد للفوضى فى الإنشاء [١]، فكثير مـــن كتبنـــا التراثيـــة الرفيعة كانت بمثابة رد فعل للثورات النقدية .

٣- يعد النقد الأدبى تلخيصا مفيدا للقراء ، فهو يوفر لهم كثيرا مـــن الوقت والجهد ذلك أنه يعرض عليهم خلاصات تتصل اتصـــالا قويا بدراساتهم ، ويبين لـــهم نواحـــى الكمـــال إن كـــان فيـــها

---

(١) يمكن القول بأن التيارات النقدية التى ظهرت فى القرن الأول كانت سببا فـــى تـــأليف الكتـــب والفصل فى الخصومات ، وهذا بدوره يضع حدا للفوضى فى التأليف .

كمال ، أو نواحى الضعف إن كان فيها نقص ، وفضلا عن ذلك كله فإنه لما كان قراء الأدب طبقات مختلفة الكفايات كان النقد الأدبى هو الطريقة المثلى التى تمثل الوسيط الجيد الذى يصل بين النفوس بقصد تقريب الآثار الأدبية إليهم .

٤- والحق أن النقد الأدبى ظاهرة اجتماعية لا غنى عنها مطلقا ، ما دام للفن الأدبى حياة ، وما دامت له تلك المنزلة الرفيعة بين الفنون الإنسانية ، وما دام له ذلك التأثير فى حياة الأمم والشعوب .

وفى نهاية هذا الحديث ينبغى أن نقول إنه ليس لتحليل النصوص الأدبية منهج بعينه يلتزم به النقاد ، ويرون اللجوء إليه عند تحليل النص وشرحه وتفسيره ، والحكم عليه فى النهاية ، فالمنطق يحتم علينا أن نقول إن المناهج متعددة ، ووجهات النظر مختلفة ،وعلى هذا فنحن نحاول أن نحدد المناهج المشهورة ، وهى[1] :

١- **المنهج الفنى .**

٢- **المنهج التاريخى .**

٣- **المنهج النفسى .**

٤- **المنهج المتكامل .**

---

(١) انظر النصوص الأدبية تحليلها ونقدها ، د/ على عبد الحليم محمود ص ٢٠ وما بعدها ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

(١) المنهج الفنى

وهو منهج يقوم على القواعد والأصول الفنية ، بمعنى أنه يجعل من القواعد والأصول الفنية أساسا يعتمد عليه فى الحكم على النصوص الأدبية .

وهذا المنهج ذاتى وموضوعى فى آن واحد ، ولعل ذلك راجع إلى اعتماده على محورين أساسيين :

(١) المحور الأول هو التأثر الذاتى من محلل النص (أى الناقد) .

(٢) المحور الثانى هو ما توفر فى النص من عناصر موضوعية ، وأصول فنية .

وهذا المنهج يعد أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب ، وإلى طبيعة الفن ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعله أحرى المناهج بالقبول لدى دارسى الأدب وناقديه ، لأنه يواجه النص الأدبى بالقواعد والأصول الفنية المقررة فى علوم اللغة ، وعلوم البلاغة، وما يتعارف عليه أهل كل علم وفن من خصائص ومميزات .

ومن أهم أهداف هذا المنهج ما يلى[١] :

١- تمييز الجنس الأدبى عن غيره من الأجناس ، كالقصيدة أو القصة ، أو الرواية ، أو المسرحية ، أو المقالة ، أو الرسالة ، أو البحث ، أو ترجمة الحياة ، بحيث يوضح لنا خصائص هذا الجنس ، ومدى ما توفر له من هذه الخصائص .

٢- توضح القيم الشعورية والقيم التعبيرية فى النص ، وبيان مدى انطباقها على الأصول الفنية لهذا النص .

٣- تلخيص خصائص الأديب نفسه من الناحية الفنية ، أى التعبيرية والشعورية من خلال دراسة هذا النص وتحليله ومواجهته بهذه القواعد والأصول الفنية .

(٢) المنهج التاريخى

والمنهج التاريخى يعتمد على تعرف النص الأدبى ، ومدى تأثره بالبيئة أو تأثيره فيها ، وما له بهذه البيئة من أطوار مر بها .

وهذا المنهج لا يمكن له بأى حال من الأحوال أن يغفل المنهج الفنى ، ذلك لأن تذوق النصوص الأدبية يقوم أساسا على دعائم المنهج الفنى ، وهذا ما جعل المنهج الفنى أهم من سواه فى مجال النقد الأدبى .

---

(١) انظر المصدر السابق ص٢١ .

ويتطلب هذا المنهج التعرف على ما يلى :

١. الأديب وظروف حياته .
٢. النص الأدبى وما فيه من قيم .
٣. الآراء التى تناولت الأديب فى النص .
٤. الأطوار التاريخية التى مرت بها الفنون الأدبية .

(٣) المنهج النفسى

وهو منهج يهتم بتحليل النص الأدبى عن طريق تسليط الضوء على نفسية الأديب المبدع ، بمعنى أنه يهتم بإبراز العناصر النفسية التى أسهمت فى العمل الأدبى .

ويستهدف هذا المنهج توضيح دلالة العمل الأدبى على نفسية صاحبه ، كما يستهدف توضيح أثر هذا العمل الأدبى فى نفوس الآخرين عند قراءته والإطلاع عليه.

(٤) المنهج المتكامل[١]

وهو منهج يعتد بكل المناهج التى سبقت ، ويتخذ أصولها وقواعدها أساسا فى الحكم على العمل الأدبى ، وبمعنى آخر إن هذا المنهج يجمع إيجابيات المناهج الأخرى ، ويتجنب سلبيات هذه المناهج .

---

(١) انظر النقد الأدبى أصوله ومناهجه ، سيد قطب .

وعن خصائص هذا المنهج يقول الدكتور على عبد الحليم محمود[1] :

أولا : المنهج المتكامل لا ينظر إلى الإنتاج الأدبى على أنه إفراز للبيئة العامة بالدرجة الأولى ، ولكنه إفراز للأديب ، والأديب متأثر فى الغالب الأعم ببيئته ...

ثانيا : المنهج المتكامل لا يتجاهل القيم الشعورية ولا القيم التعبيرية فى الأثر الأدبى ، وإنما يأخذها فى اعتباره ، ويقيس جودة الأثر الأدبى أو رداءته بمقاييسها ، وهى مقاييس فنية جيدة .

ثالثا : المنهج المتكامل لا ينظر إلى الإنتاج الأدبى على أنه إفراز لعوامل نفسيه محددة البواعث ، معروفة العلل ، وإنما ينظر إليه على أنه نتاج النفس البشرية بكل ما أودعها الله من قدرات ، وما هيأه لها من استعدادات النفس البشرية التى تعد من أكبر العوامل التى خلقها الله ومن أغناها .

رابعا : المنهج المتكامل وإن كان تعامله الأساسى مع العمل الأدبى فى ذاته إلا أنه لا يغفل الجوانب الأخرى التى تسهم فى العمل الأدبى وتؤثر فيه دون شك ، مثل علاقة العمل الأدبى بنفسية صاحبه ، وأثر البيئة فى صاحب العمل الأدبى ، فهو منهج يجمع فى خطواته معظم إيجابيات المناهج التى تحدثنا عنها ، ويتجنب فى خطواته أكثر سلبيات تلك المناهج ، ومن ثم كانت تسميته "المنهج المتكامل" تسميه مناسبة حقا .

---

(١) النصوص الأدبية تحليلها ونقدها ص٦٠،٦١ .

رابعا : الخطوات المتبعة فى دراسة النص الأدبى

لقد أفاض النقاد فى الحديث عن تحليل النصوص الأدبية ، وأكثروا القول حول الخطوات التى ينبغى اتباعها عند تحليل نص من النصوص الأدبية ، وغايتهم من ذلك أن يكون المتناول للنص سريع الاستجابة للتأثيرات التى تثيرها فى نفسه قراءة النص الأدبى.

ومع ضرورة توفر الذوق الأدبى لمن يريد أن يقدم على تحليل نص من النصوص ، مع ضرورة ذلك فإنه لا بد لصاحب هذا العمل أن يكون ذا نزعة إنسانية فى نقده تدعوه دائماً إلى الالتقاء مع أصحاب النصوص التى ينقدها.

ولقد برع الدكتور محمد كامل الفقى فى حصر وتتبع الخطوات التى ينبغى الأخذ بها فى دراسة نص من النصوص الأدبية ، ونحن نوردها بنصها كما ذكرها وهى تتمثل فى[١]:

أولاً : أن تضع أرقاماً للنص الشعرى لتكون شبه ضوابط للأفكار المتعددة فى النص ، فتسهل تحديد هذه الأفكار بتلك الأرقام ، ولتجد معانيها اللغوية فى هامش الصفحات بمراعاة هذا الترقيم.

---

(١) من عيون الأدب، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م،ص٦ وما بعدها.

ثانيا : أن تسوق ترجمة قصيرة لصاحب النص تركز فيها علـــى ما له صلة وثيقة بهذا النص ، فإذا كان النص منسوبا مثلا للصنوبـــرى شاعر الطبيعة العباسى نوهت بإحســـانه وصـــف الطبيعـــة ، وفتونــه بها ، ذلك الذى يتمثل فى بستانه الذى أنشأه وتعهده بالسقى والنماء ممـــا هو أثر من إلفه للرياض وامتزاج نفسه بها.

وإذا كان النص لأبى تمام أو المتنبى أشرت إلى غوصــــهما فـــى الفلسفة مما أضفى على أسلوبهما العمق والغرابة.

وإذا كان منسوبا للبارودى وجاء نصه فى الفخر والحماسة نوهـت بنشأته الحربية ومناصبه العسكرية والميادين التى خـــاض معاركـــها .. وهكذا. وأقرب توضيح لهذه الترجمة أن تكون "بطاقة" لصاحبها.

ثالثـاً : أن تتحــــدث عــن المناسبـــة التـــى قيـــل فيـــــها النـــص ، والمناسبة فيما أرى لونان :

أ- مناسبة مباشرة كالتهنئة بفتح أو إدراك أمل ، أو قـــدوم عيــد ، أو عودة من سفر أو شبه ذلك.

ب- ومناسبة غير مباشرة ، بمعنى أنها ليست واقعة فعـــلاً ، وإنمـــا هى مجـــرد خواطـــر شـــعرية ، وســـرحة مـــن خيـــال الشـــاعر والأديب ، ولا يعز عليك إذاً أن تعبر عن هذه المناسبة بأنها تصـــور من الشاعر أو الأديب ، وانفعال بخياله الذى ناب منـــاب الحقيقـــة. والمباشرة غيض من فيض بالنســـبة للثانيـــة ، ومـــن الواضـــح أن المناسبة بقسميها محتملة الوجود فـــى الشـــعر والرســـالة والقصـــة والمقال ، والخطبة المميزة أما المرتجلة فالمناســـبة فيـــها للانفعـــال الملهم.

رابعا : تقسيم النص :

جرى كثير من شراح النصوص على أن يقسموا النص المدروس من قصيدة أو رسالة تشتمل على عدة أغراض ، وجملة مقاصد ، فيقولوا إن النص يشتمل على غزل ، ومدح ، وفخر ، ووصف أو غير ذلك محددين بداية هذه الأغراض ونهايتها.

وقد يكون النص قائما على غرض واحد ، كالغزل وحده أو الوصف داخل هذا الغرض الواحد ، وفائدة هذا التقسيم الاستعانة به لزيادة الوضوح وتجسيم ما فى النص من أفكار حتى لا يضل الدارس ولا ينسى جانباً منها.

والذى أميل إليه ، أن يفوض للدارس اللجوء إلى هذا التقسيم أو العدول عنه فى القصائد القصار ، أو القصيدة التى لم تتعدد أغراضها ، وهو كذلك حر فى أن يفعل مثل ذلك أو لا بفعله فى الرسالة التى يدرسها إن كانت كذلك.

لكن الأجدى أن يترك النص القصير أو ذا الغرض الواحد دون تقسيم لأن التقسيم قد يؤدى إلى تتبع هذه الجزئيات فيقال أنها فى البيت الأول والثالث والشطر الأخير من الخامس ، وفى الجمل الثلاث الأولى من الرسالة وفى الجملة السابعة ، والجملة العاشرة فى بعضها ما هو من هذه الفكرة ، وهذا تمزيق للنص لا طائل تحته.

خامسا : أن تضبط ألفاظ النص التى يوقع إغفال ضبطها فى اضطراب قد يكون من آثاره الفهم الخاطئ ، أو المعنى المختل ، وكم فى اللغة من ألفاظ يتغير معناها باختلاف حركات حروفها .

وقد ألف ابن مالك النحوى الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٢هـ كتاب الألفاظ التى تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها .

سادسا : أن تفسر الكلمات اللغوية لأن هذه الكلمات أوعية لمعانيها وقد يكون للكلمة الواحدة عدة معان وعلى الدارس إذا أن يوازن بين ما يصلح التفسير به وما لا يصلح ، بل عليه ، أن يختار من هذه المعانى الصالحة المتقاربة ما هو كالمتعين فى تفسير النص .

سابعا : أن تتولى شرح الأفكار التى يشتمل عليها النص ، وهذا العنصر من البحث ذو أهمية خاصة ، فهو مظهر جلى للقدرة على الفهم ، والغوص وراء المقصود من النص ،وهو كذلك مجال لتفاوت الكفايات فى التعبير الأدبى الدقيق ، وكلما استحضر الدارس فى ذهنه ما يتصدى له من مهمة وهى معالجة نص أدبى له إشراق وإحسان ، اجتهد فى أن يكون الأسلوب الذى يشرح به النص دقيقا موزونا بما يوزن به النفائس ، فليس شرح النص الأدبى مجرد محاولة تقريبية ، إنما هو فى الأصح مرآة مجلوة تعكس جوانب النص كلها فيستوى لدى القارئ أن يجد هذه التحفة الأدبية فى النص الذى جاءت فيه أو الشرح الذى شرحت به ، ولا يغيب عن الأذهان أن توقى الأساليب الراقية فى معالجة النصوص أمر لا غنى عنه ، وهذه الأساليب بمثابة الثوب الجميل للجسد الجميل .

ومن الخطأ الفنى فى شرح هذه الأفكار أن تعرض فى ترتيب لا يوافق ما جاءت علية فى النص ، فلا بد من عرض هذه الأفكار حسب تسلسلها فى القصيدة أو الرسالة أو الخطبة أو المقالة أو القصة ، ومقياس هذه المحاكاة أن تكون الحالة المنسوجة من الشرح كالملائمة تماما للحالة المنسوجة من النص لا زيادة ينتهى إليها ، ولا نقص ينحدر إليه .

ومن براعة الشرح مع ملاحظة هذا كله أن يجمع من الأفكار ما يكون حلقة متصلة تناثرت فى خلال النص مقوماتها .

فلو كان النص مشتملا على غزل ووصف وشاعت جزئيات الغزل بين أول النص وآخره وفى ثناياه ، لزم أن يضم شتاته ويؤلف بين ما تباعد منه ، وترجمة ذلك أن يجتذب الدارس ما تناثر من جزئيات الغرض ويؤلف بينها ، ويبرزها فى نسق متكامل .

ومن تمام التآلف بين الشرح والنص أن تقع – فيما أرى – كلمات قصيرة من النص فى أسلوب الشرح وأن يكون بينها وبين الشرح تمام المؤاخاة حتى كأنها جزء من النص ، وذلك لا يتيسر طبعا إلا إذا نقيت أساليب الدارس وارتقت عباراته ، وتم أعظم التجارب بينه وبين الأديب ونصه ، حينئذ تكاد النغمة أن تتحد ، والرونق أن يتماثل .

ثامنا : أن تناقش أفكار النص ، وهذا العمل أهم ما يناط بالدارس ، لأن هذه المناقشة حكم على النص ، أو لعلها عدة أحكام ، ومن ثم فهى مظهر للقدرة والدقة ، وأثر من آثار العقل ، وصورة للموازين الصحيحة التى لا يهتدى إليها إلا من اكتملت له مواهب عقلية وعلمية وأدبية ، ومن كان له مع ذلك ذوق بصير يمكنه من أن يحتكم إليه مع هذه المزايا .

وإنما كان حق المناقشة قاصرا علـــى مـــن توفــرت لـــه هـــذه الخصائص ، لنضمن سلامة الكم ، ودقة المقاييس .

فالمقومات زمام يمسك به الدارس فلا يضل ، والتمكن من علـــوم العربية والوقوف على معايير النقد ، ضمان من فساد الحكم والزلل .

وينبغـــى ملاحظـــة أن الـــذوق موهبــــة فطريــــة ، وإدراك طبيعى ، يختلف باختلاف الأشـــخاص والبيئــات ، ويتفــاوت بتفــاوت الظروف ، والتربية والجنس ، وكلما صحت مقومات الـــذوق صحــت أحكامه ...)) .

وفى رأينـــا ورأى كثيــر من النقـــاد أن الأدب يتكــون مـــــن عناصر أربعة هـــى : (العاطفة ، والمعنى ، والخيال ، والأســـلوب)[١] ومعنى هذا أن أى لون من الألوان الأدبية لا بد وأن يشتمل علـــى هـــذه العناصر الأربعة ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يخلو من عنصـــو منها .

فالعاطفة تكشف عن ألم الشاعر أو الكاتب ، كمـــا تكشــف عـــن شقائه ، وتعبر عنه أصدق تعبير وأقواه ، ومن هنـــا نـــدرك أن إثـــارة العواطف هى العنصر الظاهر فى الأدب .

وفى رأينا كذلك أن الأديب لا يعبر عن الحقيقة من حيـــث هـــى حقيقة ، بل من خلال إدراكه الوجدانى لها ،وإحساسه العاطفى بها ، فأى قوة تلك التى تمنح الشاعر القدرة على نقل الحقائق من واقع حسى إلـــى واقع جديد ؟[٢].

---

(١) انظر النقد الأدبى ، أحمد أمين : ٢٢/١ مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعـــة ١٩٧٢م ،، وانظر كذلك أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ص١٨٠ والمذاهب النقدية ، د/ ماهر حسن فـــهمى ص٩ .

(٢) انظر أصول النقد الأدبى ، أحمد الشايب ، ص٢١٠ وما بعدها .

فالخيال إذا هو الرابطة بين عالم الشعور وعالم الإدراك والفهم ، وهو يستمد قوته فى كل الأحوال من العاطفة والوجدان ،وكلما كان رصيد الأديب من العاطفة كبيرا استهوى النفوس بروعة خياله وجدته ، وما نقوله عن العاطفة والخيال نقوله عن المعانى واللغة ، وغيرها من مقاييس النقد الأدبى .

ومهما يكن من أمر فهناك حقيقة ينبغى أن نشير إليها ، وهى أنه قد ظهرت فى العصر الحديث عدة مقاييس[١] ، كما ظهرت علوم أسهمت إلى حد كبير فى توجيه الدراسات النقدية ، وكلها تسهم فى عملية الإبداع ، كما تسهم فى التعرف على شخصية الأديب ، وتحديد إطارها على ضوء دراسة المواقف النفسية[٢] وهذا ما فطن إليه الدكتور محمد كامل الفقى حين تناول فى دراسته للخطوات التى تتبع فى دراسة النص دراسة الحالة النفسية ، والحكم على التجربة الشعرية ، والعاطفة، والاحتكام إلى الذوق الخاص ، يقول[٣] :

" **دراسة الحال النفسية :**

ومع الاعتراف بضيق الوقت للطالب ، وما يثقل كاهله من مواد دراسية نجد من الضرورى فى دراسة النصوص الأدبية ، أن نتلمس الحالة النفسية للأديب ، وأن نستشف ما عليه الأديب – من خلال نصه – من رضا أو غضب ، ومن حب أو بغض ومن اطمئنان أو قلق

---

(١) راجع النقد الأدبى د/ سهير القلماوى ص٧٢ وما بعدها ، طبعة معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥م ، ومقالات فى النقد الأدبى ، د/ رشاد رشدى ص٧ طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٢م ، والمذاهب النقدية د/ماهر حسن فهمى ص٢١ .

(٢) انظر التفسير النفسى الأدبى د/عز الدين اسماعيل ، والنقد الأدبى ومدارسه الحديثة ، تأليف ستانلى هايمن ، ترجمة د/إحسان عباس ومحمد يوسف نجم جـ١ ص١٠ وما بعدها ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٨م .

(٣) من عيون الأدب ، ص ١٦ – ٢٣ .

ومن إيمان أو اصطناع إيمان ، فإن الأديب يرتبط بالنص أوثق ارتباط ، لأنه مهما خدع أسلوبه ، لا تخفى حاله النفسية ،وما بين الأدب والنفس أغنى من أن يحتاج إلى بيان ، وقد يقول بعض الناس : إن الأدب يصنع النفس ، وقد يقول بعضهم : إن النفس تصنع الأدب ، ومهما يكن من شيء فبينهما علاقة أوثق علاقة ، والمنهج العلمي إنما يقوم على دراسة العلاقة بين الأديب ونفسه ، وبعض الباحثين المحدثين عني بدراسة العلاقة بين البلاغة وعلم النفس ، وبعضهم كتب في الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ...

والحق أن السلوك في دراسة النص الأدبي من الأهمية بمكان ، وإن كان محتاجا إلى جهد وبصر وروية[١].

الحكم على التجربة الشعرية :

ولا بد في الحكم على النص الشعري من التأمل في التجربة الشعرية ،ومن التعرف على ما وصل إليه الشاعر من إحسان أو تخلف ، والتجربة الشعرية هي الحالة التي تلابس الشاعر ، وتهدي وجدانه إلى موضوع من الموضوعات ، من حادث أو مشهد فيعبر عما شهده أو تأمله تعبيرا يرسم مدى القيمة الفنية للشاعر ، ويلائم بين التجربة والصياغة ، والقيمة الفنية إنما تنحصر في درجة التواؤم بين التجربة والصياغة ، أو بمعنى آخر في اتساق الثوب الشعري مع التجربة ، وتفصيله على قدها ، فلا يكون طويلا فضفاضا ، ولا قصيرا معريا .

---

(١) راجع كتاب التفسير النفسي للأدب للدكتور عز الدين إسماعيل .

ومن الشعراء من يعمد إلى الإطالة والاستطراد حتـــى تتضـــارب الخواطر ، ويشيع فى النص التناقض .

وقد كان الشعر القديم يتسم كثير منه بهذا الاستطراد ، بحيث لـــو حذفت بعض أبياته ما لمست نقصا ، لكن الشعراء المجددين ، وجـــدوا أنفسهم أمام مقاييس جديدة ، وصار الحكم على فنهم يعتمد على أســـس منها هذه التجربة التى تميز بين شاعر وشاعر .

فالتجربة الشعرية الخليقة بالبقاء هـــى التـــى تتنـــاول موضوعـــا عاما ، أو موضوعا إنسانيا مع جمال الأداء وجودة الصياغة .

وبمعنى آخر ، إن الشاعر العظيم الباقى هو الذى يتنـــاول حقيقـــة من حقائق النفس الدائمة ، أو حقيقة من حقائق الوجود الخالدة فى تأديـــة بارعة محكمة [١].

العـــاطفـــة :

ومن مهمة الدارس أيضا أن يعرض لما فى النص من هذه القـــوة التى ينقلها وهى العاطفة ، والعاطفة أو الانفعال يراد بها نزوع الشـــاعر أو الأديب إلى موضوع أو فكرة أو مشاهدة تؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعـــه إلى التعبير عن مشاعره والإفصاح عما يجرى بخواطـــره ، فالعاطفـــة الأدبية هى القوة التى يثيرها الأديب فى نفوس القراء .

والعاطفة متفاوتة فى النصوص ، تفاوتها فى نفوس أصحابها .

---

(١) راجع كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف السحرتى .

وواجب الدارس أن يحكم عليها فى النص من حيث منبعها الــذى تدفقت منه ، ومن حيث الباعث عليها ومن حيث نوعها ومظهرها ...

وفى الحق أن صــدق العاطفــة وكذبــها مــن الدقــة واللطــف بمكان ، فكم من نصوص تخدع عباراتها ، ويفتــن أسـلوبها ، ويعيــا الباحث عن طريق الحق الذى ينفذ منه إلى الحكم الصادق ، وإن وجــده فبعد لأى وصبر شديد .

المــوسيقــى :

وآخر ما يناط بدارس النص الأدبى أن يسمع إلى مــا فيــه مــن جمال الموسيقى وتناسق النغم ، وليس الشعراء بمثابة واحدة فى أنفاســهم الشعرية ، فمنهم من ينضح شدة بالحلاوة الموسيقية ، ومنهم من تتمــيز أنغامه بالإثارة والانفعــال ، ومنــهم مــن تتســم موســيقاه بالقعقعــة والرنين ، وفيهم من لا تشعر بأية هزة حين تسمع شعره ، والشعر الــذى يفقد موسيقاه يفقد أهم مقوماته ، وربما عد نظما لا شــعرا ، والشــاعر المبدع هو الذى يوجــد التنســيق الموســيقى بيــن فقــرات القصيــدة جميعها ، ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى أن اتبــاع الوحــدة الموســيقية الكلية ، إنما يقصر على القصائد الغنائية أو الوجدانية وعلــى القصــائد القصار ، أما القصائد المطولة فقد يحلو التنوع الموسيقى فيها لأن مــن شأن ذلك أن يبعدها عن السآمة والملل[1].

---

(١) الشعر المعاصر .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التي تتفق وحالة الشاعر النفسية ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة في البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة من لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة طويلة من الدراسات التجريبية فى موضوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ، ولكنه فى توزيع غير مطرد من النبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التي تتفق وحالة الشاعر النفسية ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة في البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة من لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة من الدراسات التجريبية فى موضوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ، ولكنه فى توزيع غير مطرد من النبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

وليس هنالك بحر مخصوص يتحتم على الشاعر أن ينظم فيه ليعبر عن انفعال خاص ، وتتبع جملة من القصائد يدل على أن الشعراء عبروا فى الوزن الواحد عن حالات انفعال مختلفة ، بل لقد عبروا عن حالات الحزن والبهجة فى الوزن نفسه.

وبعض الكاتبين يقسم الموسيقى الشعرية إلى قسمين : موسيقى خارجية ويحكمها العروض ، وموسيقى داخلية ويحكمها قيم صوتية باطنية ، وهى أرحب من الوزن والنظم المجردين .

وموضوعات الشعر تختلف فيها الموسيقى اختلافا بينا ، فالغزل يتطلب موسيقى تختلف عن موسيقى الوطنية وموسيقى الجهاد مثلا ، والأصوات تتفاوت فى قوتها ونغمتها وصفاتها وألوانها وانخفاضها وارتفاعها وكميتها ، فمن الموسيقى ما يمتاز بقوته وجمال تقطيعاته الصوتية ومنها ما يمتاز بالسرعة والسلاسة دون الحلاوة الإيقاعية وأفضل موسيقى الشعر ما ساير موضوع القصيد ، وخيرها ما تمشى مع الأفكار وتساوق مع المعانى . وتجاوبت ألوان نغماته ونبراته مع حالات النفس .

فالشاعر فى حال اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالى النغمة ، وفى حزنه يكون منخفض النغمة ، وفى تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون المسافات الصوتية قصيرة ، أما فى بثه وألمه فتكون مسافات الصوت طويلة ، وهكذا تساير النغمات حالات النفس ، كما تساير موضوع القصيد وفكرته[1].

---

(١) الشعر المعاصر .

والذوق يختلف باختلاف أصحابه ولكن الذوق وحده ليس كافيا فى التمييز بين هذه الألوان ، ويجب أن يضاف إليه كل ما يقرره النقاد مـــن مقاييس .

هذا وقد أدرك الشعراء المعاصرون أهمية التشـــكيل الموســيقى للقصيدة من حيث أثرة القوى فى تقديم صــــورة صادقـــة ، ومؤثــرة ، لوجداناتهم المختلفة ، فحاولوا أن يخرجوا مـــن إطـــار الشـــكل القديـــم للقصيدة إلى شكل جديد تكون الموسيقية للقصيـــدة خاضعـــة خضوعـــا مباشرا للحالة النفسية أو الشعورية التى يصدر عنها الشــــاعر ، وبـــهذا تصبح القصيدة صورة موسيقية كاملة تتلاقى فيها الأنغام وتفترق محدثـــة نوعا من الإيقاع الكلى الذى يترك فى نفس المتلقى أثره .

وملاحظة النغمة العامة للأسلوب ، والتيار الصوتى الذى يجب أن يطرد فى غير قسوة ولا ملل ، غاية لا بد أن يتوخاها الأديب .

والأدب بأنواعه قائم علـــى هـــذا النغـــم الـــذى يحقـــق الجمـــال والأخذ ، غير أنه فى الشعر أقوى وأوضح منه فى النثر ، وهـــو فـــى الشعر الوجدانى أكثر لزوما وأشد ارتباطا .

قد يقول : إن الـــوزن والقافيـــة صاحبـــا الأثـــر فـــى موســـيقى الشعر ، فما الذى جلب الموسيقى للنثر ؟

قلنا إن الموسيقى فى النثر من خلـــوه مـــن الكلمـــات المتنـــافرة الحروف .

ونقائه من العبارات والكلمات والجمل التى تؤدى إلى تنافر ما .

والتنويع فى النغم يزيده قبولا .

وقصر الفقر والمزاوجة كذلك من الأسباب التى تزيد فى موسيقى النثر.

والتكرار قد يساعد على إضفاء الموسيقى فى النثر .

ويلاحظ أن الموسيقى متفاوتة بتفاوت الغــرض الأدبــى ، فــهى صاخبة فى الفخر والحماسة هادئة رقيقة فى الغزل ، حزينة فى الرثـــاء والشكوى .ولا نظن أن اختيار بحر من بحور الشعر ، فى غرض مـــن الأغراض يحدث من الموسيقى ما يمنع من استعماله فى غرض آخر .

فالطويل مثلا ، استعمل فـــى النســيب ، والفخــر ، والـــهجاء ، والرثاء ، وغيرها .

وآخر ما أنبه إليه من مقاييس الموسيقى غير منضبطـــة ، لأنـــها تعتمد على الذوق ، والذوق مختلف ،وللناس فيما يعشقون مذاهب ..."

شاعرية العرب

امتاز العرب بقول الشعر ، واستطاعوا أن يتفوقوا فى ميدانه على غيرهم من الأمم ، ولما كان الشعر أكبر علومهم ، وأوفر فنون الأدب حظا عندهم ، نجدهم يخلفون لنا تراثا يثير الإعجاب والدهشة ، تراثا اشترك فيه الرجال والنساء والسادة والصعاليك .

وكان الشعر فى العصر الجاهلى ديوان العرب ، وسجل أخبارهم ، ومرآة حياتهم فلقد أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأيامهم ، فعلى صفحته تتراءى لنا حالتهم الخلقية والاجتماعية والعقلية والدينية ، ومن خلال قصائدهم نعرف أيامهم وتاريخهم ، ونقف على أنسابهم وأحسابهم وحروبهم ، كما نقف على الأوصاف التى وصفوا بها بيئتهم .

وكان الشاعر فى الجاهلية يحظى بمنزلة رفيعة ، ومكانة مرموقة ، ولم لا وهو صوت القبيلة ، وزعيمها فى السلم ، وعلى رأس أبطالها فى الحرب ، وهو الشخص الذى يمكنه دون سواه أن يدافع عن الأحساب والأنساب ، ولذلك كانت القبيلة من القبائل إذا نبغ فيها شاعر بادرت القبائل الأخرى وهنأتها ، وهو اعتراف بمنزلة الشاعر وبعلو مكانته ، فهو صاحب دور مهم فى حياة قبيلته ، وهو الناطق بمجدها ، والمصور لمفاخرها ، ولذلك حرصت كل قبيلة على أن يكون لها شاعر أو عدد من الشعراء ، يرفعون اسمها بين القبائل ، ويذودون عنها إذا تطلب الأمر ذلك .

وعلى هذا كان الشعر أوفر فنون الأدب عند العرب ، ومن ينظر فى الأغانى والأمالى والحماسة والكامل والمفضليات وغيرها من الكتب يرى بنفسه تلك الثروة الضخمة من الشعر والتى تدل على أن العرب كانوا أقوى الأمم

شاعرية ، وهم دون شك أشعر الأمم السامية قاطبة .

والواقع أن الشعر يتفاعل مع نفس العربي ، وتتكامل به شخصيته ، ويتألف من كيانه المتميز ، واتجاهه في فهم الحياة من حوله ، والحكم على ظواهرها ، ثم يكون هذا الشعر الذي ينشئه صورة لهذه القوى المتفاعلة المتكاملة من حوله .

وفي رأيي أن السر في شاعرية العرب يرجع إلى ما يلي :

١) أن اللغة العربية تمتاز بأنها لغة شعرية ذات جرس ورنين ، وهي فوق ذلك قد شهدت تطورا ملحوظا إبان عصرها المديد حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من غنى بالمفردات والتراكيب ، وكثرة الترادفات ، ودقة التعبير بها .

٢) صفاء النفس العربية ، وقوة الاستعداد ، وسرعة الخواطر . فالعربي بلاشك ذكي وصاحب قريحة ، وجيد الفطنة ، صائب الرأي ، وافر العقل ، وإنسان هذا شأنه لابد وأن يكون متوقد الإحساس ، جياش العواطف ، يضع الأشياء في مواضعها ، ويأتي بالكلام من وجهه ، ويخاطب كل أحد بما يقتضيه الحال .

٣) الحياة التي كان يحياها العربي ، كالحرية والاستقلال ، وحب التنقل والترحال ، والحروب والغارات ، والمفاخرات ، وهذه الطبيعة الجميلة التي كان يقع عليها نظره من صحراء ساكنة صامتة ، وشمس صافية ، وقمر مضيء ، كل هذا وغيره من شأنه أن يطلق الألسنة ويهيج المشاعر .. هذا إذا عرفنا أن كل قبيلة كانت في حاجة إلى من يشيد بحسبها ونسبها ، ويتغنى بكرم رجالها وشجاعة أبطالها .

٤) يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا قوما أميين ، وكانوا فى كل حالهم يعتمدون على الذاكرة لا على التدوين ، والشعر أسهل الفنون فى المحافظة ، وأعلقها بالذهن ولا شك أنهم كانوا أصحاب نفس صافية ، وقد وهبوا قوة الاستعداد وسرعة الخاطر والبديهة .

من هذه العوامل وغيرها ندرك سر قوة شاعرية العرب ، ثم ندرك أنه لا عجب أن يكون العرب أشعر من غيرهم ، وأن يقولوا الشعر بالفطرة ، وأن ينبغ من العرب فى الشعر كثير من الشعراء والشواعر ممن خلدت كتب الأدب والتراث آثارهم حتى توارثها الأجيال جيلا بعد جيل .

العصور الأدبية :

إن تاريخ الأدب وإن لم ينقسم فى عصوره القديمة إلى أقسام كتلك التى نحن بصدد كتابتها .. إلا أن هذا لا يمنع من تقسيمنا لتاريخ الأدب العربى إلى عصور متعددة وهى :

١) العصر الجاهلى [1] :

ويبدأ هذا العصر منذ أول رواية تصلنا للشعر ، وهناك ما يشبه الإجماع بين الباحثين والنقاد إلى أن هذا العصر يبدأ تقريبا قبل الهجرة النبوية الشريفة بمائة وخمسين عاما ، وتكون نهاية هذا العصر بظهور الإسلام .

٢) العصر الإسلامى :

ويبتدىء هذا العصر مع ظهور الإسلام وإحداث الإسلام للتأثير

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د . شوقى ضيف ص ٣٨ ، ٣٩ .

فى الأدب ، وينتهى هذا العصر بانتهاء حكم الخلفاء الراشديـــين . وليس هناك شك فى أن أدب هذا العصر قد تغير عنه فى العصـــــر الجاهلى .

٣) العصـر الأمـــوى :

بداية هذا العصر هى بداية حكم معاوية بن أبى سفيــان ٤١ هـ ، ونهايته هى نهاية الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ . وأدب هذا العصر ليس بعيد الصلة عن الأدب فى العصر الجاهلى ، كل ما هنالك أنـه قد برزت فيه المذاهب والأحزاب السياسية .

٤) العصر العباســى :

يبدأ هذا العصر عام ١٣٢ هـ عند نهاية الدولة الأموية وظهـــور الدولة العباسية وينتهى بسقوط هذه الدولة عام ٦٥٦ هـ ، ويقســم هذا العصر نظرا لطوله إلى العصور التالية :

(أ) العصر العباسى الأول ويبدأ من عام ١٣٢ هـ وينتهى عـــام ٢٣٢ هـ .

(ب) العصر العباسى الثانى ويبدأ من عام ٢٣٢ هـ وينتهى عـــام ٤٤٧ هـ .

(جـ) العصر العباسى الثالث ويبدأ من عام ٤٤٧ هـ وينتهى عـــام ٦٥٦ هـ ، وهى السنة التى سقطت فيها الدولة العباسيـــة ، واستولى التتار على بغداد على أنه هناك عصر أدبى آخر وهو (العصر الأندلسى) ويبدأ من القرن الثانى للهجرة واستمــر لمدة تقترب من ثمانية قرون ، وهذا العصر كثيرا ما يذكر مـــع العصر العباسى .

٥) عصر الضعف والانحطاط :

ويبدأ هذا العصر بسقوط بغداد فى أيدى التتار ، وينتهى بمطلع العصر الحديث ، وذلك حين أخذت الآداب الأوربية تؤثر بدورها فى أدبنا العربى .

٦) العصر الحديث :

ويبدأ هذا العصر ببداية تأثير الآداب الأوربية فى أدبنا العربى ، وهذا العصر يمتد حتى وقتنا الحاضر .

****

طبقـات شعراء العربيـة :

يقسم الرواة شعراء العربية من حيث العصور والأزمنة على النحو التالي :

(١) الشعراء الجاهليـون :

وهؤلاء الشعراء هم الذين نشأوا وعاشوا في العصر الجاهلي ، ولم يشهدوا عصر صدر الإسلام ، ولكن انتهت حياتهم قبل الإسلام . ومن هؤلاء الشعراء (امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعنترة بـن شـداد) .

(٢) الشعراء المخضرمـون :

وهم الشعراء الذين أدركوا الجاهلية والإسلام معا وقالوا شعرا فيهما ومن هؤلاء الشعراء (حسان بن ثابت ، والحطيئة ، وكعب بن زهـير) .

(٣) الشعراء الإسلاميـون :

وهم الذين عاشوا في صدر الإسلام إلى أواخر العصر الأمـوى ، ومن هؤلاء الشعراء (عبيد الله بن قيس الرقيات ، والكميت بن زيد ، وجريـر ، والفرزدق) وهذا على أساس أن العصر الإسلامـي يبدأ من الهجرة إلى سقوط دولة بني أمية عام ١٣٢ هـ ، علـى أن البعض قد قسم العصر الإسلامي إلى قسمين : (عصر صدر الإسلام) ثم (عصر بني أميـة) .

طبقات شعراء الجاهلية :

أما من ناحية ترتيب شعراء العصر الجاهلى فى طبقات وتقديم بعضهم على بعض فهذا أمر قد اختلف فيه العلماء ، ولكل واحد من الشعراء الفحول فى الجاهلية جماعة تتعصب له وترى تقديمه على غيره ، فعلماء البصرة يتعصبون لامرىء القيس ويقدمونه على سواه ، وأهل الكوفة يتعصبون للأعشى ويقدمونه على غيره ، والحجازيون يقدمون زهيرا والنابغة الذبيانى ، وأيا ما كان الأمر فإن أبا عبيدة معمر المثنى قد قسم شعراء الجاهلية إلى ثلاث طبقات وهى :

١) الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى ، وأسقط الأعشى .

٢) الطبقة الثانية : الأعشى ميمون بن قيس ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة .

٣) الطبقة الثالثة : عنترة بن شداد ، وعروة بن الورد ، وعمرو بن كلثوم ، والمرقش الأكبر .

ولكل شاعر من هؤلاء الشعراء تراث أدبى له قيمة كبيرة ، وقد مثل كل واحد منهم عصره وبيئته مهما كانت المحاولات التى أرادت النيل من تراثهم والتشكيك فيه .

وهذه الطبقات تضم طوائف من الشعراء ومن هذه الطوائف :ـ

أ) الشعراء الفرسان :

وهم أولئك الشعراء الذين أظهروا بطولات خارقة فى حروب قبائلهم

على خصومهم وأقرانهم ، وكانت كل قبيلة حريصة على أن يكون لها أكثر من فارس ، وتلقانا دائما أسماء شعراء اشتهروا بالفروسية ، وكانت الحروب الطويلة هى الميدان الذى ترعرع فيه هؤلاء الفرسان .

وعلى رأس هؤلاء الفرسان المهلهل التغلبى (١) وعامر بن الطفيل (٢) وعنترة بن شداد (٣) . ولعل عنترة يعد أشهر شاعر فارس احتفظت ذاكرة كل عربى بفروسيته وبشجاعته النادرة ، فلقد بعثت الفروسية فى نفسه ضربا من التسامى والمروءة الكاملة ، حتى أن من يقرأ شعره يحس بأن الشاعر يأسر لبه بمثله الخلقية الرفيعة .

ب) الشعراء الصعاليك :

وهم أولئك الشعراء الذين صرفوا كل همهم للغارة وقطع الطرق ، وتتردد فى أشعارهم جميعا الثورة العارمة على المجتمع وبخاصة الأغنياء ، كما تتردد فى أشعارهم صيحات الشجاعة والصبر عند البأس ، وشدة المضاء ، وكثرة الإغارة والمغامرة (٤) .

ومن الشعراء الصعاليك : السليك ، وتأبط شرا ، والشنفرى ، وعروة بن الورد العبسى . ولعل عروة بن الورد (٥) وهو الشاعر الجاهلى الصعلوك الذى يتميز عن غيره من الشعراء الصعاليك ، فهو لم يحترف الصعلكة لذاتها ولكنه يحترفها لأسباب كريمة شريفة ، إذ نجده لايغزو

---

(١) انظره فى الأغانى : ٣٤/٥ طبعة دار الكتب .
(٢) انظره فى الأغانى : ٥٠/١٥ طبعة الساسى .
(٣) انظره فى الأغانى : ٢٣٧/٨ طبعة دار الكتب .
(٤) انظر الشعراء الصعاليك د . يوسف خليف .
(٥) انظر أخباره فى الأغانى : ٧٣/٣ طبعة دار الكتب .

للغزو ولا للنهب والسلب كما كان غيره من الصعاليك ، ولكنه ينهب ليساعد بذلك المحتاجين والمعوذين ، والذى يلفت النظر أنه لم يسلب كريما ولم يغز جوادا ، ولكنه كان يتخير أولئك الذين شاع بخلهم واشتهروا بالكف عن مساعدة المحتاج ، وهذا يجعلنا نقول إن الصعلكة عند عروة ضرب من ضروب المروءة والخلق النبيل ، وكأنما تحولت الصعلكة إلى نظام يشبه الفروسية تماما .

العوامل المؤثرة في الأدب الجاهلي

لا شك أن الأدب (شعرا كان أم نثرا) مرآة تعكس الحياة بما فيها من خير أو شر ٠ ونحن إذا قرأنا أدب أمة من الأمم فإننا بدون شك سنقف على مقومات هذه الأمة وعلى طبيعة بلادها كما سنقف على قيمها وأخلاقها وعاداتها وعقائدها وغير ذلك من الأمور التى تتصل بحياتها أو بجانب من هذه الحياة ٠

وأمتنا العربية شأنها شأن أى أمة ، تتأثر بما تتأثر به ، وأدبها يصور كل أمور حياتها ، وهذا الأدب يتأثر بدون شك بكل التغيرات التى تحدث فى البيئة العربية وبمعنى آخر أن هذا الأدب صدى لحركة المجتمع ٠

وعلى هذا الأساس فإن هناك عوامل عديدة تؤثر فى الأدب ، وعلى رأس هذه العوامل ما يلى :ـ

١) طبيعة بلاد العرب :

عاش العربى فى بلاد مترامية الأطراف ، وعرة المسالك ، مرهوبة الطرق وهذه الطبيعة والحياة القاسية فرضت عليه أن يعيش عيشة معينة ، وأن يكون شجاعا جريئا يحتمل الشدائد ، كما دفعت تلك الحياة الإنسان إلى أن يعيش فى إطار القبيلة ، أو أن يعيش صعلوكا ينهب رزقه نهبا وأن تظهر فى فنونه الأدبية الخشونة والغلظة والجفاء ٠

يقول النابغة يصف ثورا وحشيا [1] :

من وحشِ وجْـرَةَ موشــيٍّ أكارعُــهُ
طاوى المصيرِ كسيفِ الصَّيقل الفــردِ
أسْـرَتْ عليه من الجَـوْزاء ساريــةٌ
تُزْجِـى الشَّمال عليــه جامد البَــرَدِ

وهذه الحياة المليئة بالمخاوف والمخاطر ، والمتسمة بالطابع الصحراوى ، قد أثرت فى أدبنا الجاهلى تأثيرا واضحا ، فلما كان البعير هو أهم حيوان يعينهم على احتمال هذه الشدائد نراهم يذكرونه فى معظم القصائد ، ويشيدون به فى شعرهم ، وكثيرا ما يصفون معه الحيوانات والأشياء التى تصادفهم فى أسفارهم البعيدة من مثل بقر الوحش والنعام والظباء والبطاردة والصيد وذكر الآل والرمضاء والقيظ والهاجرة وغير هذا وذاك مما هو أثر من آثار الطبيعة .

وللشنفرى وتأبط شر وغيرهما من شعراء الجاهلية قصائد يصفون فيها طبيعة بلاد العرب الصحراوية ، وما جرته هذه الطبيعة على الشعراء من متاعب ومخاوف ومشقات ، وأثر هذه الطبيعة فى تحويل حياتهم جميعا دون استثناء إلى حياة حربية جعلت الغزو وسيلتهم المفضلة للمعيشة .

---

(1) ديوان النابغة ص ١٧ ، ١٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار المعارف .

٢) كثرة الحروب :

هذه الحياة القاسية المخيفة هى التى دفعت القبائل فى الجاهلية إلى أن يتحاربوا ، وكانت كل قبيلة تعيش معيشة حربية خالصة حتى أصبحت الحياة الحربية هى أهم ما يميز حياة العرب فى الجاهلية ، ومن شأن هذه الحياة الحربية أنها تؤثر فى كل ألوان الأدب ، فكان على كل شاعر أو خطيب أن يحمس القبيلة ، وأن يفتخر بشجاعة فرسانها ، وإذا انتصر جيش قبيلته وجدنا أشعار الاعتزاز والفخر ، وعلى العكس من ذلك إذا هزمت القبيلة وجدنا أشعارا تعبر عن المرارة .

وهذا واحد من الشعراء الفرسان فى الجاهلية وهو عنترة بن شداد (1) نجده يصور البسالة والبطولة الحربية ويسجل تأثرة بالنصر .

يقول فى أبيات له (2) :

ومدجّجٍ كرِه الكماةُ نِزالَهُ
لا مُمعِنٍ هَرَبًا ولا مُستسلمِ

جادت يداى له بعاجل طَعْنةٍ
بمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعوبِ مُقَوَّمِ

فشكَكْتُ بالرمح الطويل ثيابه
ليس الكريم على القَنا بمُحَرَّمِ

فتركتُهُ جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَهُ
يقْضِمْنَ قُلَّةَ رأسِهِ والمِعْصَمِ

---

(1) انظر أخباره فى الأغانى : ٨/٢٣٧ . طبعة دار الكتب .
(2) شرح القصائد التسع المشهورات لأبى جعفر النحاس تحقيق أحمد خطاب : ٢/٥١٠ نشر وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٣ م .

٣) الأحوال الاجتماعيـة :

لهذه الأحوال أثر كبير في الأدب الجاهلي ، فقد وجهت الأدب الوجهة التي تريدها ، وصبغته بالصبغة التي تتمشى وأحوال القبيلة في العصر الجاهلي ففي هذا العصر دفع العربي حرصه على الشـرف إلى أن يتصف بمجموعة من الخلال والصفات الحميدة مثل : الحلـم والكرم والوفـاء وغير ذلك من المناقب ، وليس في الشعر الجاهلـي صفة تؤكد معنى المروءة والعزة والكرامة والشرف إلا وتمدح بهـا الشعراء الجاهليـون .

ولم يكونوا يقدرون شيئا كما يقدرون الكرم ، فهو خصلة تفـوق عندهم كل الخصال ، وقد بعثتها فيهم الحياة القاسية وما فيها مـن إجداب وإمحال ، لذلك كان الغني منهم يذبح ذبائحه قرير العـين ليطعم بها أهله وعشيرته ، ومن ينزل إليه من الضيفان ، أو تدفعهم ظروف الحياة الصحراوية إليـه . (١)

كذلك نجدهم يقدرون خصلة الوفاء ، وهذه الخصلة عندهم تؤكد معنى العزة والكرامة ، لدرجة أنه إذا وعد واحد منهم وعدا كان مـن المحتم أن يوفي بـه وكانت قبيلته مساعدا له في الوفاء بهذا الوعـد ، ليس هذا فحسب بل إنهم ليمتدحون بكل صفة فيها مروءة وأنفة وإباء .

يقول المتلمـس : (٢)

---

(١) انظر أبيات لحاتم الطائي في الكرم عند كلامنا : " ما هو الأدب ؟ " .
(٢) حماسة البحتري : ٢٠ طبعة بيروت .

إن الهوانَ حمارُ الأهل يعرفه
والحرُّ ينكره والرَّسْلة الأُجُدُ

ولا يُقيم على خَسْفٍ يُرادُ به
إلا الأذلّان : غيرُ الأهل والوَتِدُ

هذا على الخَسْف معقولٌ برمّته
وذا يُشَجُّ فلا يبكى له أحدُ

الحياة الدينية :

كان العرب فى الجاهلية يدينون بأديان مختلفة فمنهم اليهودى والوثنى والنصرانى والحنيفى والصابئى ، على أن كثرتهم كانت وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث فى مظاهر الطبيعة ، والوثنيون هم الذين يعبدون الأصنام والأوثان ، وللعرب أصنام وأوثان وبيوت عبادة ، ومن أصنامهم هبل وكان صنما لقريش ، وكان بداخل الكعبة . ومن بيوت العبادة التى يعظمونها : العزى وهى لقريش وبنى كنانة ، ومنها اللات وهى لثقيف ، ومنها : مناة وهى للأوس والخزرج .

على أن العرب مع عبادتهم للأصنام وتعظيمهم لها نجدهم يعرفون الله سبحانه وتعالى ، ويقرون بأنه أعظم وأكبر من كل ذلك .

يقول أوس بن حجر [1] :

وباللات والعُزّى ومن دانَ دينَها
وبالله ان الله منهُن أكبرُ

(1) ديوان أوس بن حجر ص ٣٦ تحقيق د . يوسف نجم .

الشعر الجاهلي

نشأة الشعر الجاهلي :

لا شك أن الشعر عند العرب بصورته التى وصلتنا هو الأثر الوحيد والعظيم الذى حفظ لنا حياة العرب فى جاهليتهم ، فإذا كان هناك من الأمم ما يخلد مآثرها بغير الشعر فإن العرب وبخاصة فى العصر الجاهلى إنما تخلد مآثرهم وتنتقل إلى الأجيال المتعاقبة عن طريق الشعر فحسب، فقد كان الشعر فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون. (١)

وليس من شك أن المراحل التى قطعها الشعر العربى حتى وصل إلى صورته الجاهلية ، هذه المراحل ليست معروفة بعد ، وليس بين أيدينا من أشعار الجاهليين ما يصور تلك المراحل ، وكل ما نتحقق منه هو أن للشعر عند العرب منزلة عظيمة أيا كانت محاولات الباحثين فى تعليل نشأة الشعر العربى .

وقد زعم بعض الباحثين (٢) أن شعراء العرب عندما سمعوا وقع أخفاف الإبل على الأرض قلدوها فأنشأوا الأوزان الشعرية ، وقد ساعدهم على على ذلك الحداء وهو سوق الإبل والغناء لها ، وقال آخرون إن السجع

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ١/ ٢٣ شرح محمد شاكر .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الأدب العربى بروكلمان : ١/ ٥١ : وانظر أيضا العصر الجاهلى د . شوقى ضيف ص ١٨٥، ١٨٦ . والحياة الأدبية فى العصر الجاهلى د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٢١١ الطبعة الثانية ١٩٥٨م .

هو الأصل فى الأوزان الشعرية ، وقد تطور إلى بحر الرجز ثم نشأت فيما بعد البحور الشعرية الأخرى ، وقال آخرون إن أصل الأوزان إنما يرجع إلى الغناء ، فالعربى فى صحرائه يحتاج إلى الترانيم والغناء فيأخذ مقاطع من الكلام يغنى بها فتطور ذلك حتى صار شعرا موزونا مقفى.

وشعرنا العربى قديم ، وإن لم يصل إلى أيدينا شىء من صورته الأولى ، إنما الذى وصل إلينا هو ما قيل منه فى العصر الجاهلى .

ويدل على قدم شعرنا العربى قول امرئ القيس : (١)

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لعلنا
نبكى الديار كما بكى ابنُ حِذَام

وقال عنترة (٢) :

هل غادَرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ
أم هل عرفتَ الدارَ بعد تَوَهُّمِ

فالأول من الشاعرين يبكى الديار كما بكاها ابن حذام ، ونحن لا نعرف من أمر ابن حذام شيئا ، ولم يصلنا شىء من شعره بصفة عامة ولا من شعره الذى بكى فيه الديار بصفة خاصة ، والثانى منهما يؤكد أنه وجيله قد سبقوا إلى المعانى بشعراء آخرين ، وأنهم إذا قالوا شعرا فإنما يكررون معانى القدماء ، الذين لا نعرف فى الحقيقة عن أمرهم شيئا .

ويتراءى لنا أن ما قيل من شعر فى العصر الجاهلى قد ضاع منه الكثير ، فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ،

---

(١) ديوان امرئ القيس شرح السندوبى ص ٢٠٠ الطبعة الرابعة ١٣٧٨هـ.
(٢) شرح القصائد التسع المشهورات لأبى جعفر النحاس : ٢/٤٥٤ .

ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير (١) . على أن ابن سلام قد روى في كتابه طبقات فحول الشعراء أن أول ما وصل إلينا من الشعر قول العنبر ابن عمرو التميمي (٢) :

قد رابني من دلوي اضطرابها
والنأي في بهراء واغترابها
إن لا تجيء ملأى يجيء قرابها

ونحن نقف من كلام أبي عمرو بن العلاء موقفا متأنيا فنقول إن الشعر الجاهلي قد بقيت منه قصائد كثيرة ، وألفت فيه مجلدات ضخام ، إذ الأمر الطبيعي أن كل قبيلة ستحافظ قدر إمكانها على قصائد شعرائها حتى تسلمها إلى أيدي الرواة الأمناء الذين يقومون بتدوينه وتسجيله ، والحقيقة أننا قد وصلتنا أشعار المهلهل بن ربيعة وأشعار امرىء القيس وغيرهم من شعراء الجاهلية ، فالمهلهل هو أول من قصد القصائد ولذلك سمي بالمهلهل لأنه أول من هلهل الشعر ، وعلى هذا تكون قبيلته (وهي قبيلة ربيعة) هي أول من عرف الشعر من القبائل ، ومن شعراء هذه القبيلة في الجاهلية طرفة والحارث بن حلزة والأعشى وعمرو بن كلثوم . أما الشاعر امرؤ القيس فهو شاعر قحطاني وأصله من اليمن ولكنه عاش في بلاد نجد بين القبائل العدنانية .

وهناك قبيلة ثانية اشتهرت بكثيرة شعرائها كما كان حال قبيلة ربيعة ، وهذه القبيلة هي قبيلة قيس التي كان من شعرائها النابغة الذبياني

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ١ / ٢٥ .
(٢) ١ / ٢٦ .

والنابغة الجعدى ولبيد بن ربيعة ، ويلى هاتين القبيلتين قبيلة تميم .

فمن المحقق أن الشعر الجاهلى قد نشأ ونقل عن هذه القبائل الثلاث ، وهذا لا يعنى أنه ليس هناك من بين القبائل العربية شعراء تنظم الشعر ، كلا فهناك قبائل أخرى مثل قبيلة مضر ومثل القبائل العدنانية والقحطانية كل هذه القبائل كان من بين أفرادها شعراء يقولون الشعر فى العصر الجاهلى ، وإن كان حظ المضرية أوفر من حظ غيرها من القبائل .

والذى لا ريب فيه أن مواطن نشأة الشعر الجاهلى إنما هى بلاد نجد والحجاز والبحرين ، وقد لاقى هذا الشعر ازدهارا وبخاصة فى البادية ، أما غير هذه المواطن من بلاد الجزيرة العربية فلم تكن موطنا لنشأة الشعر العربى ، ذلك لأن بعضها كاليمن كانت لغتها فى العصر الجاهلى هى اللغة الحميرية ، وعمان مثلا لم يكن سكانه كلهم من العرب وإنما كان يخالطهم الفرس والهنود .

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر اليمنى امرأ القيس القرشى اللغة هو رائد الشعر الجاهلى على الإطلاق ، لأن شعره هو الشعر الذى اكتمل ونضج وتناقلته الرواة ، وقد ذكره أبو عبيدة كما نقل ابن قتيبة " أنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى فى الدمن ووصف ما فيها فتبعوا أثره. [1]

ويمكن أن يقال أيضا إنه أتى بعد امرىء القيس شعراء آخرون مشهورون كالحارث بن حلزة اليشكرى البكرى وعمرو بن كلثوم ، وعنترة العبسى ،

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/ص ١٠٥ وما بعدها . تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف ١٩٦٦م .

وزهير بن أبى سلمى ، ولبيد بن ربيعة الذى أدرك الإسلام ، هــؤلاء وغيرهم من الشعراء قد عاشوا العصر الجاهلى وقد وصلتنا أشعارهم ، ولما كان أقدمهم لا يتجاوز مائــة وخمسين سنة رجحنــا أن تكون مدة العصــر الجاهلى مائة وخمسين سنة ، وأن تكون بداية هذا العصر قبل الهجــرة النبوية الشريفة بمائة وخمسين سنة تقريبــا . (١)

(١) انظر تاريخ الآداب العربية لكارلونالينوص ٧٥ دار المعارف الطبعــة الثانية ١٩٧٠م .

روايـة العرب للشعر العربي الجاهلي :

لا شك أن الشعر العربى قد وصل إلينا عن طريق الرواية ، وعلى هذا فإن رواية أشعار كثيرين من الشعراء الجاهليين أمر ممكن وليس فيه ما يثير الشك كما فعل البعض الذين قالوا باستحالة رواية الشعر الجاهلى .

أما ما يقال عن تدوين الشعر العربى فى العصر الجاهلى بالكتابة فهذا أمر فيه نظر ، لأن هذا يطرح سؤالا مقتضاه : هل كانت الكتابة معروفة فى العصر الجاهلى ؟ وفى هذا المجال قرر الدكتور شوقى ضيف قائلا : " والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ، ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة فى نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء فى حفظ دواوينهم " . (١)

وكلام الدكتور شوقى ضيف هذا جعل الآراء تتضارب لا فى كتابة الشعر الجاهلى بصفة عامة ولكن فى كتابة المعلقات أيضا وتعليقها على الكعبة ، وهو نفسه قد قرر أن القول بكتابة المعلقات وتعليقها على الكعبة أمر من باب الأساطير . (٢)

وأيا ما كان الأمر فنحن نقول إن الكتابة وإن وجدت فى العصر الجاهلى إلا أنها كانت محدودة وليست شائعة ، وإن وردت أشعار لبعض الشعراء

---

(١) العصر الجاهلى ص ١٤٠ .
(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها .

قد دونت على الرحل وغيره إلا أن الصفة الغالبة فى حفظ الشعر العربى لم تكن الكتابة وإنما كان ذلك بواسطة الرواة وتداولهم لهذا الشعر ، وكانت روايتهم للشعر لا تتعدى الجد الرابع أو الخامس ، بمعنى أن الرجل كان يروى عن جده ، وجده هذا كان يروى عن أبيه أو جده ، ولا شك أن الشعر الرائع الجيد كان يفرض سلطانه على الرواة فيحفظونه ويظلون يتناقلونه ، يدل على ذلك قول المُسَيَّب بن علس الشاعر الجاهلى (١) :

فلأُهْدِيَنَّ مع الرياح قصيدةً
منى مُغَلغلةً إلى القَعْقَاع
تَرِدُ المياهَ فما تزالُ غريبةً
فى القوم بين تمثُّلٍ وسَمَاع

ويدل على أن العرب كانوا يعتمدون على الرواية فى تناقل الأشعار أيضا أن الشاعر الجاهلى التغلبى عميرة بن جعيل قد هجا قبيلة تغلب بأبيات قال فيها (٢) :

كسا الله حيَّىْ تغلبَ ابنة وائل
من اللؤم أظفاراً بطيئاً نصُولُها
(فما بهم ألا تكونَ طَروقةً
كُراماً ، ولكنْ غيَّرتْها فحُولُها
إذا ارتحلوا من دار ضَيم تعاذَلوا
عليهم ، وردّوا وفدهم يستقيلها

---

(١) المفضليات تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ص ٦٢ طبعة دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٧٦ م .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢/٦٥٠ .

فلما ذاعت هذه الأبيات وحفظها الرواة وتناقلها الناس نجده يندم على ذلك وقد ظهر ندمه في قوله [1] :

نَدِمْتُ على شَتْمِ العشيرة بعد ما
مَضَتْ واستَتَبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ

فأصبَحْتُ لا أستطيع دفعًا لما مضى
كما لا يَرُدُّ الدرَّ في الضرع حالِبُهْ

فمثل هذا القول يدل دلالة قاطعة على أن العرب كانوا يعتمدون على الرواية فحسب في تناقل أشعارهم .. وهذا أمر معروف ، فالشعر الجاهلي منذ أن عرف له رواة ينقلونه إلى من بعدهم ، وكثيرا ما شاع بينهم أن فلانا الشاعر هو راوية شعر فلان ، وهناك سلسلة من الرواية المتصلة يمكن أن نجعلها مثلا لرواية الشعر الجاهلي ، فشعر أوس بن حجر قد رواه الشاعر زهير بن أبي سلمى ، وروى الحطيئة شعر زهير ، والحطيئة روى شعره هدبة بن خشرم ، وهدبة بن خشرم روى عنه جميل بثينة ، وجميل بثينة روى عنه كثير عزه [2] .

ومن هنا نقول إن الاهتمام برواية الشعر الجاهلي إنما يتمثل في هذه السلسلة من الرواة التي رأيناها والتي بها وصل الشعر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ، ومن الملاحظ أن هذه المدرسة لم يكن كل رواتها من قبيلة بعينها وإنما هم من قبائل متعددة ، وكان بلا شك في كل قبيلة عدد من الرواة ، بل إن شئت فقل إن بعض القبائل كانت تعتز بأشعار شعرائها اعتزازا بلغ درجة جعلت معظم أفراد القبيلة من الرواة ، وقد تمثل ذلك أعظم تمثيل في قبيلة تغلب .

---

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها .
(٢) الأغاني للأصفهاني : ٩١/٨ .

وفى عصر صدر الإسلام كان العرب يهتمون بحفظ الأشعار على الرغم من شغلهم الشاغل بالفتوحات الإسلامية ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستحث حسان بن ثابت على قول الشعر ، وتبعه فى ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، بل إنهم وتابعيهم كانوا يروون الأشعار فى المسجد .. وهذا يؤكد أن رواية الشعر الجاهلى قد استمرت فى عصر صدر الإسلام .. حتى إذا وصلنا إلى الدولة الأموية العربية النزعة نجد شعراء هذه الدولة هم الذين تولوا بأنفسهم رواية الأشعار ، وكان الشعراء الكبار منهم يعدون شعراء ورواة ، ولم لا وكان خلفاء هذه الدولة يسألون وفود القبائل التى تفد عليهم عن بعض شعرائها ، بل إنهم قد ينشدون البيت من الشعر ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، وهذا هو الفرزدق وهو من أكبر شعراء العصر الأموى كان راوية لعدد لا بأس به من شعراء الجاهلية ، وليس ثمة شك فى أن هذا الشعر قد وصل إلى الفرزدق وجرير وغيره من الشعراء الإسلاميين . (1)

واذا كان رواة الشعر فى العصر الجاهلى هم من الشعراء الذين ينظمون الشعر ، فان هناك شيئا مهما ينبغى أن ننبه اليه وهو أنه قد ظهر فى العصر الاسلامى جماعة من الرواة ليسوا ممن ينظمون الشعر ، وكل مالهم من غاية فى رواية الشعر وهو نشره بين الناس ، وكان الدافع عند هؤلاء انما هو العناية الشديدة بالشعر الجاهلى كتراث يجب الاهتمام به واذاعته فى الناس بل وتنقيحه وتهذيبه .

وقد أدى هذا إلى وجود طائفة من الرواة نذروا أنفسهم لرواية الشعر ،

---

(1) انظر كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد ص ٢٣١ وما بعدها طبعة دار المعارف .

بل إن بعضهم فى نهاية العصر الإسلامى وفى مطلع العصر العباسى قد جعلوا من رواية الشعر وتدوينه حرفة لهم ، وهؤلاء لم يكونوا يقفون عند حد رواية الشعر فحسب ، بل إنهم كانوا يضيفون إليه أخبارا عن الجاهلية وأيامها ، ويشرحون بعض الألفاظ الغريبة وعلى رأس هؤلاء أبو عمرو بن العلاء ، وهو من الرواة الثقات ، وحماد الراوية وكان من أشهر رواة الكوفة والخليل بن أحمد ، وخلف الأحمر ، ويونس بن حبيب ، ومحمد بن السائب الكلبى ، والمفضل الضبى ، وأبو عمرو الشيبانى ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، وأبوزيد الأنصارى [1] .

وقد تقاسم هؤلاء الرواه وغيرهم مذهبا البصرة والكوفة فى العصر العباسى ، وهم دون استثناء أصحاب خبرة فى الشعر يميزون بعضه من بعض ، ولا يأخذون الشعر إلا من راوية يفهم ما يقول ، وقد تقدم رواة البصرة على رواة الكوفة فى هذا الأمر ، وليس ثمة شك فى ذلك ، فقد كان أبرز رواتهم وهو أبو عمرو بن العلاء معروفا بأمانته بينما كان رواة الكوفة غير أمناء ، ولذلك كثيرا ما اتهموا بالوضع وأنهم ينظمون على لسان الجاهليين ما لم يقولوه .

وأيا ما كان الأمر فإننا نقول إن الشعر الجاهلى كان يعتمد على الرواية ، وهذه الرواية قد أحيطت بكثير من التحقيق والتدقيق ، ولئن دخل الشعر الجاهلى وضع فما مثله فى ذلك إلا مثل الحديث النبوى الشريف فقد دخله هو الآخر وضع كثير .. على كل حال فالشعراء الجاهليون لم يفكروا فى تدوين أشعارهم على الرغم من أن هذا الشعر كان مناط الشرف للقبائل

---

(١) انظر هؤلاء فى الفهرست لابن النديم ص : ٤٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٧ مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

وكان فخارها •

وظل الحال هكذا إلى أن أخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في العصر الإسلامى فى تسجيل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه وبعض أخباره •• وتأخر تدوين الشعر نظرا لأن بعض الصحابة كان ينكر ذلك • وأخذت تظهر مدونات • ولعلنا على حق حين نقول إن الرواية قد انصبت ودونت فى دواوين شعرية نجدها بين أيدينا الآن ومنها المفضليات، والأصمعيات • وحماسة أبى تمام • وحماسة البحترى • وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة • وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى • ونحن نجد سند الرواية مثبتا فى الكتب المدونة • وهذا يدل على ما لهذا السند من أثر فى النفوس • وكتاب أبى الفرج الأصفهانى الأغانى دليل واضح في ذلك •

وعلى الرغم من كثرة التأليف والتدوين • وعلى الرغم أيضا من هذا العرض لرواية الشعر الجاهلى. إلا أن البعض قد اتخذوا من دخول كثير من الانتحال فى الشعر الجاهلى سببا للقول بانتحال الشعر الجاهلى كله • وبلغ من حقد المستشرقين أنهم لم يسلموا إلا بصحة القليل من القصائد الجاهلية • أما الكثير منها فهو موضوع منتحل • ولم يقفوا عند ذلك بل قالوا باستحالة حفظ الرواية الشفوية للشعر الجاهلى [1] •• وحسبنا فى ذلك أن بعض المستشرقين قد ردوا على البعض الآخر فى هذه القضية الأمر الذى يؤكد أن الشعر الجاهلى وإن كان قد دخله الانتحال إلا أنه من الطبيعى

---

(١) انظر مناقشة المستشرقين لقضية الانتحال فى تاريخ الأدب العربى لبلاشير : ١ / ١٧٦ وما بعدها • وانظر كذلك كتاب ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلى ص ٣٥٣ وما بعدها •

أن وراء هذا الانتحال شعر صحيح نهتدى فى معرفته بالرواية الموثوق منها ، وهذا القول يدفع بنا إلى الحديث عن مصادر الشعر الجاهلى :

مصادر الشعر الجاهلى :

مادة الشعر الجاهلى ليس لها مصدر واحد وإنما توزعتها منتخبات عامة ودواوين عديدة للشعراء ، هذا إلى جانب كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة ، وسنحاول فيما يلى أن نذكر أهم مصادر الشعر الجاهلى ومنها :ـ

١) المعلقات :

المعلقات تعد من عيون الشعر العربى ، وهى قصائد محكمة النسج شريفة المعنى ، وقد اختيرت من بين القصائد الجاهلية لتكون صورة موفقة لأجمل الشعر العربى وأعذبه ، ثم لتكون مثالا يحتذى ونهجا يتبع ، وللمعلقات قيمة كبرى ، فقد قدمها الناس على غيرها ، وجعلوا شعراءها أئمة للشعراء فى العصر الجاهلى وما تلاه من عصور ، وما يزال المهتمون بالأدب والشعر يقدمون شعراء المعلقات على غيرهم .

وقد اعترى الغموض الطريقة التى اتبعت فى اختيار المعلقات من بين أشعار العرب ، كما امتد الغموض كذلك إلى المختار لتلك المعلقات أو الراوى لها ، على أن الرأى الراجح الذى قيل فى اختيار المعلقات يقول بأن حمادا الراوية هو الذى اختار تلك القصائد الجاهلية وخصها من مجموع الشعر الجاهلى لما تتمتع به من التقدم على غيرها [1] .

---

(١) شرح القصائد التسع المشهورات لأبى جعفر النحاس تحقيق أحمد خطاب ٦٨٢/٢ .

ومع أن الشائع أن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها علقت بأستار الكعبة ، إلا أن معظم النقاد قد اختلفوا حول هذا الأمر كما اختلفوا حول تسميتها ، وعددها ، وعدد الشعراء الذين قالوا المعلقات .. ومع أن حمادا هو الذى اختارها ، إلا أنه لم يذكر مسألة تعليقها على الكعبة ، كما لم يذكر المفضل الضبى شيئا حول هذا الأمر .

وقد ذكر ابن الكلبى موضوع التعليق على أستار الكعبة ، وعلى قوله فإن أول ما علق من المعلقات قصيدة لأمرىء القيس ، وقد علقها على الركن لينظر إليها كل طائف بالكعبة ، على أن هناك رأيا آخر يقول إن القصيدة من المعلقات تكتب على قطعة من القماش أو الجلد الرقيق وتطوى على عود وتربط ثم تعلق فى داخل الكعبة ، وكان العرب يعلقون القصيدة الجيدة فى ركن الخيمة بعد كتابتها وطيها ، ومن عادة العرب أيضا أنهم كانوا يعلقون الأشياء المهمة على الكعبة ، فالعهد الذى اتفق فيه القريشيون على مقاطعة بنى هاشم كان قد كتب فى صحيفة وهذه الصحيفة علقت على الكعبة (1) .

وقد عرفت هذه القصائد واشتهرت باسم المعلقات لما سبق أن قلنا ، على أن لها أسماء أخرى ومنها (السموط) وهى العقود ، فالعرب يشبهون الجيد من القصيد بالعقد الذى يعلق فى صدر الحسناء ، ومن أسمائها المذهبات ، لأن هذه القصائد كتبت بماء الذهب على الحرير أو على القباطى قبل تعليقها ، ومن أسمائها القصائد المشهورات لأنها نالت شهرة أكثر من غيرها ، ومن أسمائها أيضا السبع الطوال الجاهليات ، ومن أسمائها

---

(1) سيرة ابن هشام تحقيق مصطفى السقا ورفاقه : ١ / ٣٧٥ مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٥٥ هـ .

القصائد التسع ، ويطلق عليها أيضا القصائد العشر ، وكل اسم من هذه إنما يراعى فيه صاحبه العدد الذى يراه للمعلقات.[1]

وهكذا يتضح أن التسمية بالمعلقات فيه خلاف ، وأن عدد المعلقات فيه خلاف أيضا ، بيد أن عددا من الذين دونوها أو شرحوها يرون أنها سبع ، ومن الذين يرون أنها سبع أحمد بن محمد النحاس ولكنه أثبت فى كتابه تسعا ، فبعد أن ذكر السبع نراه يذكر قصيدتين للأعشى والنابغة ، وقد رأى التبريزى أن عدد المعلقات عشر ، وقد تابعه فى ذلك عدد من المتأخرين .

أما أصحاب المعلقات فمنهم خمسة اتفق الرواة عليهم وهم : امرؤ القيس وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، فهؤلاء لم يحدث حولهم أى خلاف ، فهم دون استثناء أصحاب معلقات بإجماع الرواة . أما عنترة بن شداد ، والحارث بن حلزة فهما السادس والسابع عند أكثر رواة المعلقات ، لكن أبا زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب يجعل النابغة والأعشى من أصحاب السبع ، وهو بذلك يخرج كلا من عنترة والحارث بن حلزة ، فهما عنده من أصحاب المجمهرات ، وقصائدهما أقل قيمة من المعلقات[2]

وقد أثبت النحاس كلا من الأعشى والنابغة بعد أن أنهى شرح القصائد السبع ، وآخرها عنده قصيدة عمرو بن كلثوم .. ومن ذلك نستخلص أن النحاس قد رأى مثل غيره أن المعلقات سبع ولكنه لم يخرج عنترة والحارث كما فعل

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد : ١/ ٩٦ .

(٢) انظر أول الجزء الثانى من جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، تحقيق على محمد البجاوى . نشر دار نهضة مصر .

أبوزيد القرشي ، وجاء التبريزي فأثبت ما أثبته النحاس وأضاف شاعرا عاشرا وهو عبيد بن الأبرص ، وعلى رأى التبريزي تكون المعلقات عشرا ، وهؤلاء هم أصحاب المعلقات ومطلع كل معلقة :

١ – امرؤ القيس ومطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢ – طرفة بن العبد البكري ومطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

٣ – زهير بن أبي سلمى وأول معلقته :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتثلم

٤ – لبيد بن أبي ربيعة العامري وأول معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها

بمنى تأبد غولها فرجامها

٥ – عمرو بن كلثوم التغلبي ومطلع معلقته :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ولا تبقي خمور الأندرينا

٦ — عنترة بن شداد العبسي ومطلع معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم

أم هل عرفت الدار بعد توهم

٧ — الحارث بن حلزة اليشكري وأول معلقته :

آذنتنا ببينها أسماء

رب ثاو يمل منه الثواء

٨ — الأعشى (ميمون بن قيس) وأول معلقته :

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعا أيها الرجل

٩ — النابغة الذبياني ومطلع معلقته :

يادار مية بالعلياء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الأبد

١٠— عبيد بن الأبرص وأول معلقته :

أقفر من أهله ملحوب

فالقطبيات فالذنوب

ومما هو غني عن الذكر أن كثيرا من العلماء قد نهضوا وتحملوا مهمة شرح هذه القصائد فشرحوا أبياتها ، وأعربوا الألفاظ وبينوا غريبها ، ومن هؤلاء أبو بكر الأنباري (ت ٣٢٧ هـ) ، والنحاس (٣٢٨ هـ) ، والثعالبي (ت ٣٥٦ هـ) ، والبطليوس (ت ٣٩٤ هـ) ، والحسين بن أحمد الزوزني (ت ٤٨٦ هـ) ، ويحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ٠ هذه هي أهم

شروح للمعلقات ، وهناك شروح أخرى تمثل عناية العلماء بالمعلقات ، ومنها شرح الدميرى صاحب كتاب (حياة الحيوان) وشرح لأبى زيد القرشى فى كتابه (جمهرة أشعار العرب) .. وكل هذه الشروح تبرز تلك العناية الفائقة التى نالتها المعلقات على مر العصور.

٢) المفضليات :

والمصدر الثانى من مصادر الشعر الجاهلى هو المفضليات ، وهى مجموعة من القصائد ، وسميت بذلك نسبة إلى جامعها وهو المفضل بن محمد الضبى راوى الكوفة الثقة ، وقد رواها ابن الأعرابى تلميذ المفضل الضبى ، وشرحها ابن الأنبارى بسند كامل يرفعه إلى ابن الأعرابى .

وقد اختلفوا فى عدد هذه القصائد ، فقيل إنها ست وعشرون قصيدة ، وقيل أضيف إليها أربع قصائد وجدت فى بعض النسخ ، وقال ابن النديم فى كتابه " الفهرست " هى مائة وثمان وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص ، ويزعم الأخفش أنها كانت ثمانين قصيدة ألقاها المفضل الضبى على المهدى ، وزاد فيها الأصمعى أربعين ثم زاد بعض التلاميذ البقية (١) .

وهذه المجموعة من القصائد كانت معروفة بين العرب ، وهى تمثل جوانب الحياة الجاهلية تمثلا دقيقا ، كما أنها دارت مع الأيام والأحداث ، وعلاقات القبائل بعضها ببعض .

٣) الأصمعيات :

وهذه المجموعة تلتقى فى بعض القصائد مع المجموعة السابقة

---

(١) تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف (العصر الجاهلى) ص ١٧٧ .

(المفضليات) ، والأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راويها ، وعدد قصائد هذه المجموعة اثنتان وتسعون قصيدة ، وهى موزعة على واحد وسبعين شاعرا منهم أربعون شاعرا جاهليا على رأسهم امرؤ القيس والحارث بن عباد ودريد بن الصمة وأبو رؤاد الإيادى .

وهذه المجموعة ذات قيمة كبيرة وإن كانت لم تلق من الذيوع والشهرة مثل ما لاقته المجموعة السابقة (المفضليات) أو المعلقات . يقول الدكتور شوقى ضيف : " غير أنها — أى الأصمعيات — لم تلعب الدور الذى لعبته المفضليات ، فلم يتعلق بها الشراح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضا فإن الأصمعى لم يرو كثيرا من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها " (١) .

٤) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى :

وهذه المجموعة ضعيفة السند ، فنحن لا نجد أبا زيد القرشى بين الرواة المشهورين ، وإن كانت الوسائط بينه وبين الرواة الثقة غير بعيدة . وأيا ما كان الأمر فهذه المجموعة تضم تسعا وأربعين قصيدة ، وكلها لشعراء جاهليين وإسلاميين ، وهى مقسمة إلى سبعة أقسام ، والقسم الأول منها خاص بالمعلقات ، ويليه المجمهرات ، ثم عيون المراثى .. وعلى كل حال فهذه المجموعة مع أنها غنية بالقصائد الطويلة إلا أنها غير موثقة الرواية .

(١) المصدر السابق ص ١٧٨ .

٥) مختارات ابن الشجرى :

وهذه المجموعة مثل سابقتها فى عدم توثق روايتها ، وهى مختارات لشعراء جاهليين وإسلاميين ، وهى موزعة على ثلاثة أقسام ، وكل قسم منها يضم عددا من الشعراء .

٦) المختارات من دواوين الحماسة :

وعلى رأس هذه المختارات ديوان الحماسة لأبى تمام ، ومن هذه المختارات ديوان الحماسة للبحترى ، وديوان الحماسة لابن الشجرى ، وديوان الحماسة للخالديين وهو يعرف بالأشباه والنظائر ، وهو لسعيد الخالدى (ت ٣٥٠ هـ) ومحمد الخالدى (ت ٣٨٠ هـ) .

٧) الدواوين المفردة للشعراء :

فهذه الدواوين من المصادر التى تشتمل على شعر جاهلى ، وهناك دواوين لشعراء ستة جاهليين ، وقد طبع بعضها طبعات مختلفة ، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال فى حاجة إلى تدقيق علمى ، كما أن هناك دواوين مخطوطة لا تزال فى حاجة إلى تحقيق ونشر .

٨) دواوين القبائل :

وهى من المصادر التى تشتمل أيضا على شعر جاهلى ، وقد جمع منها الشيبانى نيفا وثمانين ، وعنى السكرى بكثير منها . (١)

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى د . شوقى ضيف (العصر الجاهلى)ص ١٨٠ .

٩) كتب أدبية أخرى :

وهناك كتب أدبية لا تقل أهمية ولا ثقة ولا قيمة تاريخية عن المصادر السابقة ، ومن هذه الكتب شرح النقائض لأبى عبيدة ، ومن هذا الكتاب نرى شعرًا جاهليا كثيرا وقد قيل هذا الشعر فى أيام العرب فى الجاهلية ، ومن هذه الكتب أيضا كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان للمؤلف نفسه ، والكامل للمبرد ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والأمالى لأبى على القالى ، وغير ذلك من الكتب الكثيرة التى اهتمت بدراسة الشعر الجاهلى صحيحه ومنوعه ، أو دراسة ربط الشعر بالعصر ، أو دراسة على سبيل الترجمة .

موضوعات الشعر الجاهلي

موضوعات الشعر الجاهلي هي الأغراض التي نظم فيها شعراء الجاهلية شعرهم ، فإذا كان الشاعر يقصد من شعره الافتخار بنفسه والاعتزاز بقبيلته فشعره حينذاك يعد فخرا ، وإذا كان غرضه من شعره هو إبداء إعجابه من شخص ما ومن كرمه وشجاعته أو غير ذلك فشعره في هذه الحالة يعد مدحا ، وإذا كان هدفه من شعره هو تحقير شخص ما والنيل منه سمي شعره هجاء ، وإذا حلق الشاعر في الخيال ورسم صورا بديعية فذلك يعد وصفا ، وإذا كان قصده وغرضه إظهار الحزن والأسى والتفجع فذلك هو شعر الرثاء ، وإذا قصد بشعره التعبير عن حديثه مع النساء فذلك هو شعر الغزل ، وإذا كان قصده وغرضه من الشعر هو استعطاف شخص ما فهذا هو الاعتزاز .. وهكذا .

فأغراض الشعر هي موضوعاته وأقسامه ، ونستطيع أن نطلق عليها فنون الشعر أيضا ، فهي أغراض وموضوعات بحسب قصد الشاعر وهدفه ، وهي فنون من ناحية الإبداع ثم الإمتاع ، ولعل [1] أقدم من حاول تقسيم الشعر العربي إلى موضوعات هو الشاعر أبو تمام ، فقد نظمه في عشرة موضوعات هي الحماسة والمراثي والأدب والنسيب والهجاء وغير ذلك ، لكنه يلاحظ أن موضوعاته تتداخل بعضها في بعض ، وقسم كذلك قدامة ابن جعفر في كتابه نقد الشعر هذه الأغراض إلى ستة موضوعات منها المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه ، وحاول أن يرد

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي د . شوقي ضيف (العصر الجاهلي) ص ١٩٥ وما بعدها .

الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء . وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة وهى النسيب والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار .

ونحن لا نستطيع أن نبسط القول فى هذه الموضوعات ، فالقصيدة الجاهلية فى حد ذاتها تشتمل على عدد من الأغراض ، فهى غالبا تبدأ بالغزل ثم الوصف ثم الغرض الأساسى الذى من أجله كانت القصيدة من مدح أو فخر أو حماسة أو رثاء أو اعتذار أو غير ذلك، وأيا ما كان الأمر فإن أهم الفنون الشعرية فى العصر الجاهلى هى :ـ

١) المدح :

وهذا الغرض يعد على رأس أغراض الشعر الجاهلى ذيوعا وانتشارا ، بل إننا لا نكون مغالين إذا قلنا إنه من أكثر فنون الشعر انتشارا فى العصور التى تلت العصر الجاهلى أيضا ، ذلك لأن اعجاب بعض الشعراء بممدوحيهم ، ورغبة البعض الآخر منهم فى العطاء تدفعان هؤلاء إلى إتقان هذا الفن من الشعر ، ومعظم شعراء الجاهلية قالوا شعرا فى ذلك ، وسعوا إلى نظم الشعر الجيد الذى يتضمن الشكر والثناء .

وقد انقسم شعراء المديح إلى فريقين : فريق يمدح من أجل الجوائز والعطايا ، ومن هؤلاء طرفة بن العبد والمتلمس والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى ، وكانت صلة كثير من هؤلاء الشعراء بالملوك قوية الأمر

الذى يجعلنا نقرر أن قوة الشاعر فى الجاهلية كانت مرتبطة بتقدمه فى هذا الغرض الذى هو غرض المديح .

وهناك فريق آخر كان يمدح أشخاصا لا عن رغبة فى العطاء أو انتظارا لجائزة ولكن لأن هذا الشاعر معجب بشخصية الممدوح وبصفة من صفاته كالكرم والشجاعة أو غير ذلك ، وكان مدحه فيه يخلو غالبا من النفاق ، ومن هؤلاء الشعراء زهير بن أبى سلمى الذى قال فيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : "كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، ومعنى ذلك أن هذا الفريق من الشعراء كان مدحهم بعيدا عن الإسراف والمبالغة .

ويتفرع عن هذا الغرض غرض آخر هو الاعتذار وهو يعنى استعطاف المرغوب فى عفوه ، حيث يقدم الشاعر عذره عما بدر منه فى عرض ملائم يحدث الإقناع ، وهو عرض يدل على براعة فى القول وتفنن فى الشعر ، ولا شك أن زعيم هذا الفن فى العصر الجاهلى هو الشاعر النابغة الذبيانى الذى قال أجود اعتذاراته فى النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

وهناك لون من الاعتذار هو إلى العتاب أقرب ، أو إن شئت فقل إنه عتاب واعتذار ، وإذا كان النابغة قد تفوق فى الاعتذار فإن الشاعر المتلمس قد اعتذر إلى أخواله ، وكان اعتذاره فى صورة عتاب ، يقول (١) :

فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتى

جعلت لهم فوق العرانين ميسما

---

(١) الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ص ٢٤٥ طبعة دار المعارف ١٩٧٦م .

وما كنت إلا مثل قاطع كفه
بكف له أخرى فأصبح أجذما

٢) الوصف :

ويعد الوصف أيضا من الموضوعات التي برع فيها شعراء الجاهلية، وهو يرد في معظم أشعارهم ، فالشاعر الجاهلي لا يكاد يترك شيئا يتصل بحياته من قريب أو من بعيد إلا وصفه ، فهو يصف ناقته وصفا دقيقا لأنه يركبها في أسفاره ، وهو يصور الصحراء تصويرا بديعا لأنه يمر بها في أسفاره وفي تنقلاته ، وهو يبرع في وصفه للفرس ويتوسع في وصفه لها لأنها وسيلته للنزهة أو للصيد ، كما وصف الشعراء الليل وطوله ونجومه ، ووصفوا كذلك المعارك التي تحدث بين كلاب الصيد وثيران الوحش وبقره وحمره وأتنه ، كما وصفوا الأمطار والبرد وشدة البرد ، ووصفوا الحروب وما يجرى فيها ، نجد ذلك عند امرئ القيس وعند عمرو بن كلثوم وعند عنترة وعند أوس بن حجر الذي يقول (١) :

دان مسف فويق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح

٣) الحماسة والفخر :

كان لطبيعة الحياة الجاهلية أثر غير قليل في ظهور مثل هذا اللون، فكان الشاعر من شعراء القبيلة يظهر اعتزازا بالفضائل الحميدة التي يتحلى بها أو تتحلى بها قبيلته ، وكانت الصفات التي يفتخر بها الشعراء كثيرة

---

(١) ديوان أوس بن حجر تحقيق د . محمد يوسف نجم ص ١٥ .

أمثال الكرم والشجاعة والمروءة والنجدة ، أما الحماسة فكانت تدور حول الافتخار بخوض المعارك والانتصارات في الحروب .

وهذه أبيات من معلقة عمرو بن كلثوم التي للحماسة فيها نصيب وافر ، يقول (١) :

متى ننقُلْ إلى قومٍ رحانا
يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقيَّ نجدٍ
ولهوتها قضاعة أجمعينا

٤) الهجاء :

وكان الشاعر الجاهلي في هجائه يهدف إلى تجريد القبيلة أو الشخص المهجو من الصفات والمثل العليا ، فهو يجعل المهجو جبانا ، كما يجعله بخيلا ، وغير ذلك من الصفات المذمومة ، ويحاول أن يلحق به كل نقص ، وأن ينزع منه كل فضل ، وكان الشاعر منهم يحاول جهده ، أن يكون مهجوه ذليلا مذموما بسبب هجائه له ، ولعل هذا هو السبب الذي كان يجعل كرام القوم يخافون الهجاء ويدفعون الغالي والرخيص للشعراء الهجائين كي لا يكونوا هم أو نساؤهم عرضة لهجائهم .

يقول الدكتور شوقي ضيف : "فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يقترن بما كانت تقترن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ، ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا

(١) شرح القصائد التسع : ٢/٦٢٣ .

إلى ذلك سبيلا " (١)

وهؤلاء بنو عامر يقول فيهم الشاعر الجاهلي الجميح الأسدى (٢)

أنتم بنو المرأة التى زعم الـ

ناس عليها فى الغىِّ ما زَعَموا

٥) الغـــزل :

والغزل هو التحدث مع المرأة وما ينتج عنـه من هيام يجعل الشاعـر يجعل هذا الحديث مادة لشعره ، وهو كفن نجده موزعا بين ذكريـات الشاعر لشبابه ووصفه لصبابته وشوقه ، وقد فرض هذا الفن سلطانه علـى الشاعر لدرجة جعلتهم يصدرون قصائدهم بـه ، وذلك لما له من أثـر فى تهيئة السامع وتنشيطه لاستماع الشعر واستقباله .

ومن أروع المطالع الغزليـة قول المثقب العبدى (٣) :

أفا طم قبـل بينـك متعيـنى

ومنعُك ما سألت كأن تبيـنى

فلا تعِدِى مواعـد كاذبـات

تمر بها رياح الصيف دونـى

فإنى لو تخالفـنى شمالـى

خِلافك ما وصلت بها يميـنى

وقد وقف الشعراء فى الجاهلية يصورون حبهم للمرأة ، وعبر بعضهم عـن

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ١٩٧ .
(٢) المفضليات تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ص ٣٤ .
(٣) المصدر السابق : ٢٨٨ .

لوعته وعن تـأثـره بالحب ، وتجاوز عدد من الشعر هذا إلى وصف المرأة وصفا كاملا ، ومن هؤلاء الأعشى ، وامرؤ القيس ، والأخير منهما لا يكاد يترك شيئا فى المرأة دون وصف لـه .

٦) الرثـاء :

وهو وصف للحزن والأسى والحرقة التى أصابت الشاعر نتيجة لفقد المرثى ، وتبرز جودة الشعراء الجاهليين فى الرثاء إذا كان فى بطل من الأبطال أو فى ابن أو أخ أو أب ، وعلى رأس شعراء الرثاء فى الجاهلية دريد بن الصمة ، وأوس بن حجر ، والخنساء ، ونحن لو قرأنا أبيات دريد بن الصمة فى أخيه عبد الله ، أو أبيات الخنساء فى أخيها صخر لقلنا إن رثاءهما يعد من الرثاء المؤثر فى النفس .

يقول أوس بن حجر فى رثائه لفضالة بن كلدة [1] :

أيتها النفس أجملى جزعـا
إن الذى تحذرين قد وقعـا

إن الذى جمع السماحة والنـ
ـجدة والحزم والقوى جمعـا

الألمعى الذى يظن لك الظـ
ـن كأن قد رأى وقد سمعـا

ومن خلال تتبعنا لأبيات هذه القصيدة يتبين لنا أن الرثاء قد تبدو فيه اللوعة ، وقد يظهر فيه الحزن وإن لم يكن قد قيل فى قريب .. وعلى

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ .

كل حال فالرثاء مدح لمن مات ونشر لفضائلـه ، وهذا هو الذى فعله أوس حين وصف المرثى بالسماحة والنجدة والحزم والذكاء وحسن التقديـر .

٧) أغـراض أخـرى :

وإذا رجعنا إلى دواوين الشعر الجاهلى وجدنا أغراضا شعرية أخرى مثـل الحكمة : وهى قول ناتج عن خبرة وتجربة ، ولا يقول شعر الحكمـة إلا من عركتـه الأيـام ، ومن شعراء الحكمة زهير وعبيد بن الأبرص وعلقمـة وعبده بن الطبيب ، وقد بث زهير حكمه فى شعره ولو نظرنا فى معلقتـه لوجدناها تحظى بالكثير من أبيات الحكمة .. على أن مسألة حصر موضوعات الشعر مسألة اعتباريـة ، فالموضوعات يمكن أن تتلاقـى ويمكن ألا تتلاقى .

xxxxxxxxxxxxxxxxx

من أعلام الشعر الجاهلي

دراســة أدبيــة عــن : عنترة بن شداد ، وزهير بن أبى سلمى ، وامرئ القيس

أولا : عنترة بن شداد (الشاعر الفارس)

حياتــه وثورتــه :

هو عنترة بن شداد ، وقيل ابن عمرو بن شداد بن قراد . من قبيلة عبس إحدى القبائل العربية المشهورة العريقة فى المجد والتاريخ والحروب[1]

ولد عنترة سنة ٥٢٥ م ونشأ وعاش قبل البعثة المحمدية ، وهو أجود شعراء العرب وفرسانهم وأبطالهم ، وكان من شعراء المعلقات ، وأبوه من أشراف عبس وساداتها وأمه زبيبة كانت حبشية سوداء ، وقد ورث عنترة عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب كما ورث عنها تشقق شفتيه ، ولذلك كان يقال له عنترة بن الفلحاء .

ولما كانت أمه زبيبة سبية لم يعترف شداد بأولادها ، إذ كان من عادات الجاهلية وتقاليدها أن أولاد الإماء لا يلحقون بنسب آبائهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة ، ولذلك عاش عنترة فى أول حياته عيشة العبيد يرعى الإبل والغنم ، ويجلب النوق والشياه .

وقد قوى عنترة ، واشتد ساعده ، وتفرد بمزايا خلقية وبطولية . جعلته

(١) انظر الشعر والشعراء : ١/ ٢٥٠ وما بعدها تحقيق أحمد شاكر دار المعارف ، وانظر الأغانى : ٢٣٧/٨ دار الكتب .

محط أنظار قومه على الرغم من استخفافهم به ، ولكنه ظل يعانى قيود الرق والعبودية ، وكم تألم عنترة من هذا الوضع المهين ، فأصر على أن ينتزع حريته ، ويتخلص من نير العبودية مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة . وبدأت رحلة عنترة فى سبيل الحرية ، فأخذ يتحين الفرصة ليحقق هدفه وأمنيته فى الحياة ويعيش عيشة الأحرار .

وحدث أن اغار حى من العرب على بنى عبس ، وأمعنوا فيهم سلبا ونهبا ، وأصابوا منهم كثيرا فتبعهم العبسيون وعنترة معهم ، فقال له أبوه : كر ياعنترة ، فقال عنترة : العبد لايحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر، فقال له : كر وأنت حر(١) . فهب عنترة وحمل سيفه ، ونغمة الحرية تزيده بأسا وإقداما ، وأخذ يصول ويجول ويقتحم صفوف الأعداء حتى حلت عليهم الهزيمة وانتصرت عبس واستردت أسلابها وممتلكاتها فادعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه ، وصار عنترة بطل عبس وفارسها الشجاع .

وشهد عنترة حرب داحس والغبراء (٦٠٨ـ٦١٠) والتى كانت بين عبس وذبيان وقد أظهر فيها من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعله مضرب الأمثال فلقب بعنترة الفوارس .

وقد عشق عنترة وهو فى شبابه " عبلة " وهى ابنة عمه مالك بن قراد ، وكان حبه لها حبا عذريا عفيفا ، إلا أن عمه رفض أن يزوجها

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٢٥٠ .

له وهو عبد ، فزاد ذلك من غضبه ، واشتد حزنه وأساه ، وحفـــزه ذلك إلى طلب المعالي ونشدان المجد وصمم على أن يحصــــل على حريته ، ثم يتزوج من ابنة عمه ، وكان له ما أراد ، فحصل علـــى حريته ، وتزوج من ابنة عمه ، وحمى محتده بحد سيفه ، وحمـــى بني عبس فحق له أن يتفاخر ، وحق له أن يرتفع إلى مستوى الأحرار .

صفاته وأخلاقه :

كان عنترة نموذجا من النماذج التي تصور لنا المروءة الجاهليـة الكاملة ، فهو صاحب مثل وقيم ، والأقوال في مزاياه وشجاعته لاتحصى فهو إلى جانب البأس والقوة حليم لين الطباع ، يعف عن النســاء ، يحفظ العهد ، ويحمي الجار ويقرى الضيفان وينصر المظلوم وهـــو سهل المخالطة والمعاشرة ، وقد فطر على صفات حميدة منها :

١ ـ العفة :

فعنترة وإن كان من أغربة العرب (١) الا أنه كان عفيفـــا ، كريم النفس ، عالي الهمة ، ويصور ذلك قوله :

أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الحرب لا أغشاهـــا

(١) أغربة العرب ثلاثة هم : عنترة ، وخفاف بن عمير ، والسليك بن عمير السعدي . (الشعر والشعراء : ١/٢٥١) .

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأواهـــا

وتتسع عفة عنترة اتساعا عظيما ، يقول فى لاميته :

ولقد أبيت على الطوى وأظلــه
حتى أنال به كريم المأكـــل

٢ ــ الفروسية :

وعــنترة من أشجع الفرسان ، قضى حياته فى الحروب والنزال ، حتى طارت شهرته بالفروسية والشجاعة النادرة ، وما زالت عالقـــة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى فى البسالة والبطولة الحربيــية ، وقد قيل له : أنت أشجع العرب وأشدهـــاء قال لا ، قيل له : فيم شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رايت غنما وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعـــا إلا أرى منه مخرجا ، وكنت أعمد إلى الضعيف الجبان فأضربـــه الضربة الهائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه فأقتله .

ويتحدث عنترة عن فروسيته وبسالته فى الطعن والنزال فيقول :

يخبرك من شهد الوقائع أننـــى   أغشى الوغى وأعف عند المغنـــم

ويقول :

ولقد شفـى نفسى وأبرأ سقمهـا   قيل : الفوارس ويك عنتر أقـــدم

* * * *

بواعث الفروسية فى الجاهلية :

— ١ —

نشأت الفروسية عند العرب نشأة طبيعية ، فظروف البيئة فرضت عليهم تقاليد خاصة ، وصارت لهم على مر السنين طبيعة وجبلة لا يستطيعون عنها حولا ·

(أ)

ولقد لعب الصراع القبلى دورا بارزا فى حياة الناس قبل الإسلام ، فقد كان لكل قبيلة أو مجموعة من القبائل كيان خاص بها فى إطاره يعيشون وعن حماه يذودون · وقد عرف العربى فى الجاهلية باعتزازه بقبيلته وتطرفه فى الدفاع عن عشيرته ، وكثيرا ما كانت رحى الحرب الطويلة تدور وتنشب بين القبائل بسبب من هذه العصبية ، ولعل " حرب البسوس " التى دارت بين بكر وتغلب " داحس والغبراء " التى دارت بين عبس وذبيان أصدق مثال على ذلك :

وقد أكسبتهم حياة الجاهلية روح التعصب حتى طبعوا على هذه الروح وطغت العصبية هذه حتى شملت الجزيرة كلها ، واستوعبت كل الأجيال التى وصلنا تاريخها من الجاهلية ·

والذى لاشك فيه أن هذه الروح وما تستتبعه من صراع ومن غزو أو إغارة كانت لها أهدافها غير المباشرة ، وهذه الأهداف والنتائج

أهم وأعمق من الأهداف المباشرة سواء أكانت هذه الأهداف انتقاما وقصاصا أم كانت طمعا ورغبة أم كانت إرهابا وتهديدا .

وهذه العصبية التي تبدو في نظرنا انحرافا في السلوك الاجتماعي لم تكن في نظر العرب كذلك ، وإنما كانت مظهرا من مظاهر القـــوة والمنعة ، كما كانت ميدانا مرموقا للتنافس ، ولذلك كثيرا ما كان الناشئة الصغار يشهدون أيام العرب المشهورة لا ليكونوا قوة بجانب قبائلهم فحسب ، ولكن ليتمرسوا بالحياة وليتدربوا على القتال وفنونه ، وليكتسبوا القوة والمنعة اللتين هما غاية كل قبيلة في بنائها ، فتعلو من ثم همتهم ويخطون في سبيل الشرف والسيادة خطوات بعيدة .

(ب)

ولم يسد النضال من أجل الحياة مكانا كما ساد بلاد العـــرب ، حتى صار النضال صناعة العربي الوحيدة ، وقد عاش البدوي في الصحراء وهو في جهاد مستمر وكفاح مرير محافظة منه على حياته ، وقد دفعـــه هذا النضال إلى إعداد العدة حتى أصبح لا يرى له من حارس إلا سيفه ورمحه ، وليس له من حمى إلا ظهر خيله وشجاعة قلبه وعظمة نفســـه ، كذلك دفعه هذا النضال إلى أن يكون أهلا لما يقتني من أسلحـــة ، وأخذ يحس بقوته ويشتد إحساسه بها .

وقد اكتسب العربي من هذه الحياة صفات كثيرة ، وكان علـــى رأسها الصبر والجلد والكفاح ، حتى صار كما يقول تأبـــــــــط

شبــــرا (١) :

قليل التشكي للمهم يصيبــه	كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرهـا	جحيشا ويعروري ظهور المهالـك
ويجعل عينيه ربيئة قلبــــه	إلى سلة من حد أخلق باتــك

كذلك انعكست ظروف هذه البيئة القاسية الخشنة على نفــــس العربي قوة وصرامة وجلداء ، ولذلك عظمت قوى الكفاح في نفســــه كما عظمت مؤهلات هذه القوى ، حتى صار من أصح الناس ، ومــــن أوفرهم قوة وأكثرهم احتمالا لما لا يطاق من الشدائد والمشقــات ، وصار يفرح بالخطوب والشدائد لما فيها من امتحان لشجاعته ومــن بلاء لمقدرته .

وظروف الصحراء تجعل النزاع بسبب الماء والمرعى على أشده ، فكان حرص العربي على الماء يدفعه هو وقومه إلى الغارة على جيرانهم الذين أوتوا فضلا من خير أو مرعى .. ولذلك شهدت بلاد العــــرب حروبا متواصلة وكانت هذه الحروب مع كثرتها تنشب لأتفه الأسبــــاب وأقل البواعث :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانـــــا

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي : ١/٩٤–٩٧ .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا (١)

بل إن العرب كانوا لا يبالون إن كانوا على حق ، أو على باطل . وكل ما كانوا يحسبون حسابه هو القوة والبأس ، فالقوى عندهم هو الذى يحذرون جانبه ، لأن كل شىء فى حياتهم كان معرضا لأن يروح ضحية هجوم خاطف .

يقول زهير بن أبى سلمى (٢) :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكان لهذه الحياة — بحروبها الكثيرة المتواصلة — أثر كبير فى إبراز دور البطولة والأبطال ، وفى إظهار دور الفروسية والفرسان . ففى الحروب مران على أعمال الفروسية وإظهار لمزايا الفرسان ، وحسن بلائهم ، لدرجة أنهم كانوا يفرحون بكثرة الحروب ، وتعددها لما فيها من امتحان لفروسيتهم وشجاعتهم وبلاء مقدرتهم على مقارعة

---

(١) العقد الفريد : ٣/١٦ . الطبعة الثالثة (١٣٩١هـ — ١٩٧١م) .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى : ٩٤ .

الحوادث والخطوب . هذا إذا أضفنا أنهم كانوا يبغون من اقتحام الشدائد الحمد والصيت والعيش في عزة وكرامة .

وكان للحروب المتواصلة بين القبائل أثر كبير في اعتزاز كل قبيلة بفرسانها الذين يملكون وحدهم رد الاعتداءات الموجهة إليها . وقد فرضت هذه الظروف أن تكون للفارس منزلة عظيمة لما له من شأن ، فهو يعد نسيج وحده في قبيلته ، وهو حصنها الحصين ، وملجؤها في الخطوب والملمات ، وكثيرا ما يعمل على نشر ذكرها ورفع شأنها .

يقول عنترة العبسي (١) :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا ازال على رحالة سابح	نهد تعاوره الكماة مكلم
يخبرك من شهد الوقيعة أنني	أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله	لا ممعن هربا ولا مستسلم

ويمكن أن يضاف إلى ذلك تلك العادة القديمة التي انتشرت في الجاهلية والتي كثيرا ما تتولد بعد الحروب والمعامع — ألا وهي عادة الأخذ بالثأر فكل قبيلة ترى لزاما عليها أن تأخذ بالثأر لكل من قتل من أفرادها ، وكانت هذه العادة بمثابة العقيدة عندهم حتى

(١) المصدر السابق : ١٥٩—١٦٠ .

لا يذلوا أو يهانوا ويتخطفهم الناس من حولهم ، كما أنها تمثل من ناحية أخرى اعتداد القبيلة بقوتها وبلائها وثقتها بالنصر .

(جـ)

ولم تكن البيئة العربية وحدها هى التى أكسبت العرب فى الجاهلية صفات الفروسية ، ولكن هذه الحياة التى ضمتهم ، وتلك الصحراء التى عاشوا تحت سمائها فرضت عليهم جميعا أن يخففوا من الأخطار المحدقة بهم ، فتعاهدوا فيما بينهم على فضائل يتحلون بها كالوفاء بالوعد ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهفان ، والكرم ، وما إلى ذلك من الصفات التى ترقى بالإنسان إلى أفق سام من آفاق الإنسانية .

وقد جبل العرب على حب الفرسان ، وكان الرأى العام يمتدح الفارس الشجاع الذى يضحى بمصلحته فى سبيل مصلحة الجماعة كما كان يمتدح الشخصيات البارزة التى تغيث الملهوف ، وتنصر المظلوم ، وتفى بالوعد وتتسم بقوة الاحتمال ، وبالأخلاق الحميدة التى تنم عن إنسانية متأصلة وبالمثل كانوا يهزءون بالنذل الجبان الذى فسدت نفسه وتبلد حسه .

ولما كان للرأى العام سلطان قوى يتأثر به الفرد والجماعة ، كان له فعل السحر فى دفع العرب لأن يكونوا نماذج خيالية فى الفروسية والشجاعة ولعل هذا هو السبب المباشر الذى دفع الأمهات

إلى تمهيد أبنائهن (١) وتنشئتهن على صفات المجد وطلب السؤدد والشرف واحتذاء الأبطال ، وتسنم ذروة المجد .. ولاشك أن هذه الحياة التى تشربتها نفوس العرب فى الحداثة هى التى خلقت منهم شخصيات بارزة عظيمة .

(د)

ويمكن أن يضاف إلى ذلك صفة أخرى وهى حب العربى للخيل ، فقد كان لهذا الحب فضل كبير فى تنشئة العربى وأقرانه طلاب مجد ونماذج عالية فى الفروسية . ومن يتتبع أخبار العرب يدرك أنه ليس هناك من أمة تعنى بالخيل وتحرص عليها عناية العرب بها .. ولهذا فلم تكن العرب تعد المال فى الجاهلية إلا الخيل والإبل ، وكان للخيل عندها مزية على الإبل ، فلم تكن تعدل بها غيرها ، ولا ترى القوة والعز والمنعة بسواها " . (٢)

ولم تكن أمة أشد إعجابا بالخيل من العرب ، يقول الجاحظ :

---

(١) انظرة الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقى : ٢٧ـ٣٩ .

(٢) حلية الفرسان وشعار الشجعان للأندلسى ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، ص ٤٣٠ دار المعارف بمصر .

" لم تكن أمة قط أشد عجبا بالخيل ، ولا أعلم بها من العرب ، ولذلك أضيفت إليهم بكل لسان ونسبت إليهم بكل مكان ، فقالوا فرس عربى ولم يقولوا هندى ولا رومى ولا فارسى " (١) .

وقد أدرك العربى ما يكتنفه وقبيلته من أخطار تهدده فى كل حين ، وهو يدرك قيمة الخيل فى هذه المخاطر ، ولهذا اعتز بها وعرف لها منزلتها واتخذها صديقا ، وعدها العرب بمثابة أولادهم ، فعنوا بتربيتها وتهذيبها حتى يحصلوا على أقصى ما يمكن من مزاياها . . ولا شك أن الحروب التى نشبت بينهم قد تطلبت منهم أن يعنوا عناية خاصة بأدوات الحرب والقتال ، وكان أول هذه الأدوات بعد الفارس نفسه جواد أصيل يعرف كيف يكون ثابتا وسط الميدان وجلبة الجيوش (٢) .

هكذا اعتزت كل قبيلة بالفرس اعتزازها بالفارس ، ولا عجب فهو وسيلتها الرئيسية فى الحروب ، وهو من أطوع الأسلحة ، وبفضله يستطيع العربى أن يذود عن أهله وعن حريته ، وأن ينطلق متعقبا عدوه ، هذا إلى ما يؤديه من خدمات جليلة يعجز دون أدائها سواه ، فكانوا يطلبون بها الثأر وينالون بها المغانم .

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى : ٢/٦٣٦ ، بيروت .

(٢) انظر تقاليد الفروسية عند العرب ، واصف بطرس غالى ، ترجمة د . أنور لوقا ، تحقيق حسنى النجار : ١٧٩ وما بعدها ، دار المعارف ١٩٦٠ .

وهذا هو السبب فى أن العرب كان يهنئ بعضهم بعضا إذا ولدت فرس ويحتفلون بمقدم المهر المولود احتفالا يدل على عظيم مكانتها فى قلوبهم ، حتى قيل : " كانت العرب لا تهنئ إلا بثلاث : إذا ولد للرجل ذكر قيل له ليهنك الفارس ، وإذا نبغ فى الحى شاعر قيل له ليهنك من يذب عن عرضك ، وإذا نتج مهر قيل له ليهنك ما تطلب عليه الثأر " (١) .

وعلى هذا الأساس من الاشتراك المتكافئ بين الفارس وفارسه قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر (٢) :

يا لهف نفسى على صخر إذا ركبت
خيل لخيل كأمثال اليعافير

ومن مظاهر عناية العرب بالخيل أن كل شعرائهم قد أولوها جل عنايتهم وفائق اهتمامهم ، على أن عددا لا بأس به من الشعراء قد تخصصوا فى وصف الخيل ، وقد ذكر الأصمعى أن ثلاثة من العرب لا يقاربهم أحد فى وصف الخيل وهم " أبو دواد الإيادى فى الجاهلية والطفيل الغنوى والنابغة الجعدى " (٣) .

* * * *

---

(١) شعراء العرب الفرسان فى الجاهلية وصدر الإسلام د . محمود حسن أبو ناجى : ص ٢٨ . مؤسسة علوم القرآن ، ط . أولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الأعلم الشنتمرى : ١٨ . دار الآفاق بيروت .

(٣) الشعر والشعراء : ١/٢٤٤ . الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ م .

٣ — الكرم والمروءة :

كان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وقد صور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهى مروءة تتخللها معانى روحية سامية يقول عن نفسه : " إنى لأحتضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى ." (١)

وكرم عنترة كان عن طبع وسجية ، فهو وإن كان يحارب إنما يحارب ليحقق لقومه الشرف والمجد والانتصار ، وإذا ما انتهت الحرب ، فإنه يعف عن المكاسب تاركا لقومه الإسلاب والغنائم .

ومروءة عنترة هى المروءة الجاهلية الأصيلة ، وقد جعلها حب عذرى عفيف ، لابنة عمه عبلة ، فقد كان يتسامى فى حبه ، فهو يحبها حبا عفيفا ، فيه طهارة النفس ونبل الخلق وعفة النفس ، ويتمنى أن يراها لا لغاية حسية ، ولكن إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ، ونقاء القلب ، فمن أجلها يزود عن قومه ويحمى حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده ، وإذا اشتد القتال لمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٢٥١ .

شعــــره :

عاش عنترة فى بيئة عربية . كانت الخصومات القبلية ، والحــروب المستعرة تثار فيها لأتفه الأسباب ، وكانت المنافسة بينه وبين أقرانه ، وحبه لابنة عمه وجهاده فى سبيل التحرير — وغير ذلك من الأمـــــور التى ساعدت على تفتح شاعريته ونضوج عبقريته .

يقول ابن قتيبة : " كان عنترة لا يقول من الشعر إلا البيتـين والثلاثة ، حتى سابه رجل من بنى عبس فذكر سواده وسواد أمـــه وإخوته وعيّره بذلك ، وبأنه لا يقول الشعر ، فقال له عنترة : والله إن الناس ليترافدون بالطعمة ، فما حضرت مرفد الناس وأنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهـــم فما رأيناك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط .. وأما الشعـــــر فستعلـم " (١) .

وهاجت شاعرية عنترة ، وأنشد معلقته المشهورة ..

هل غادر الشعراء من متردم

. . . .

وهى من أحسن شعره وكانت العرب تسميها " المذهبـــة " وهى من أجود المعلقات وأبدعها وصفا ، وأشدها حماسة وفخرا .

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٢٥١ ، ٢٥٢ .

وعنترة من شعراء الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية ، ويمتاز شعره بسهولة اللفظ ، وعذوبة الأسلوب ورقة العبارة ، يدل على شاعرية ناضجة تعبر عن تجاربها في قوة وفي لغة تجمع الجزل والسهل على حسب ما تقتضيه الأغراض المختلفة ، ففيه الفخر بشجاعته وسخائه ، وفيه الوصف ، وفيه النسيب الصادق وغير ذلك مما يشهد له بالفحولة والشاعرية ، كما شهدت له الوقائع والحروب بالبسالة والبطولة .

يقول الدكتور شوقي ضيف عنه : " وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنترة ، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلا أعلى والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعر الدقيق " (٢).

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ٣٧٤ .

قصيدة لعنترة بن شـــــــداد

يتحدث فيها عن بسالته وإقدامه في الحـــــروب

١ — هلا سألت الخيل يا ابنة مالــك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمـــــــي

٢ — إذ لا أزال على رحالة سابــح
نهد تعاوره الكماة مكلـــــــم

٣ — طورا يجرد للطعان وتـــــارة
يأوى إلى حصد القسى عرمـــــرم

٤ — يخبرك من شهد الوقيعة أننـــي
أغشى الوغى وأعف عند المغنـــــم

٥ — ومدجج كره الكماة نزالـــــه
لا ممعن هربا ولا مستسلـــــــم

٦ — جادت يداى له بعاجل طعنـــة
بمثقف صدق الكعـــوب مقـــــوم

٧ — فشككت بالرمح الأصم ثيابـــه
ليس الكريم على القنـــا بمحـــــرم

٨ — فتركته جزر السبـــاع ينشنـــه
يقضمن حسن بنانـــه والمعصـــــم

٩ — لما رآنى قد نزلت أريـــــده
أبدى نواجذه لغـــــير تبســــــم

١٠ـ فطعنته بالرمح ثم علوتــه
بمهنـد صافى الحديدة مخــذم

١١ـ ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى
إذ تقلص الشفتان عن وضح الفـم

١٢ـ فى حومة الحرب التى لاتشتكى
غمراتها الأبطال غير تغمغـم

١٣ـ إذ يتقون بى الأسنة لم أُخـم
عنها ولكنى تضايق مقدمـى

١٤ـ لما رأيت القوم أقبل جمعهـم
يتذامرون كررت غير مذمـم

١٥ـ يدعون عنتر والرماح كأنهـا
أشطان بئر فى لبان الأدهـم

١٦ـ مازلت أرميهم بثغرة نحـره
ولبانه حتى تسربل بالـدم

١٧ـ فازور من وقع القنا بلبانـه
وشكا إلى بعبرة وتحمحـم

١٨ـ لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمـى

١٩ـ ولقد شفى نفسى وأبرا سقمهـا
قيل الفوارس ويك عنـتر أقـدم

٢٠ـ والخيل تقتحم الغبار عوابسـا
ما بين شيظمة وأُجرد شيظـم

٢١ـ ذلل ركابى حيث شئت مشايعى
قلبى وأحفزه بأمر مبرم

٢٢ـ ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن
للحرب دائرة على ابنى ضمضم

٢٣ـ الشاتمى عرضى ولم أشتمهما
والناذرين إذا لم ألقهما دمى

٢٤ـ إن يفعلا فلقد تركت أباهما
جزر السباع وكل نسر قشعم

* * * *

المفردات اللغوية (١) :

٢ ـ الرحالة : سرج يعمل من جلود الغنم . والسابح : هو الفرس السريع العدو . نهد : ضخم . تعاوره الكماة : أى تعاوره الفرسان بالطعن . مكلم : مجروح .

٣ ـ الطور : المرة الأولى . والتارة : المرة الثانية . الحصد : المحكم العرمرم : الكثير .

٤ ـ الوقيعة : الوقعة . الوغى : الصوت فى الحروب ويراد بها الحرب المغنم : الغنيمة .

---

(١) انظر تفسير أبيات القصيدة فى : جمرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام للقرشى ، تحقيق على البجاوى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

٥ ــ المدجج : المتغطى بالسلاح ٠ النزال : القتال ٠

٦ ــ بمثقف صدق الكعوب : أى برمح صلب قوى ٠

٨ ــ الجزر : جمع جزرة وهى الشاة تذبح وتنحر ٠ ينشنه : يتناولنه بالأكل ٠ يقضمن : يأكلن ٠

٩ ــ الناجذ : ما ينبت من الأسنان ٠

١٠ــ صافى الحديدة : قوى القطع ٠ مخذم : قطاع ٠

١١ــ تقلص الشفتان : أى انزواؤهما وذلك عند فزع الرجل ٠ عن وضح الفم : أى عن بياض الأسنان ٠

١٢ــ غمرات الحرب : شدائدها ٠ التغمغم : الصوت الذى لايفهم ٠

١٣ــ لم أخم : لم أجبن ولم أضعف ٠ تضايق مقدمى : أى ضاق المكان الذى أقدم فيه ٠

١٤ــ يتذامرون : يحث بعضهم بعضا على القتال ، غير مذمم : أى محمود القتال ٠

١٥ــ الأشطان : الحبال ، واللبان : الصدر ، والأدهم : الفرس ٠

١٦ــ الثغرة : الرقبة فى أعلى النحر ٠ تسربل : صار له سربال من الدم ٠ والسربال : القميص ٠

١٧ــ ازور : تمايل ٠ بعبرة : بدمعة ، التحمحم : من صهيل الفرس ٠

٢٠ــ العوابس : الكالحة من الجهد والتعب ٠ الشيظم : الطويل ، الأجرد : القصير الشعر ٠

٢١ــ ذلل : جمع ذلول ، والذلول من الإبل وغيرها ضد الصعب ٠ الركاب : الإبل ، المشايعة : المعاونة ٠

٢٢ــ ابنا ضمضم : هرم وحصين كان عنترة قد قتل أباهما ضمضما .

٢٤ــ جزر السباع : مقتول لها تأكله . القشعم : الكبير من النسور .

تحليل الأبيات :

يقول عنترة محدثا ابنة عمه عن شجاعته وجرأته في الحرب : هل سألت الفرسان والقواد عن شجاعتي أثناء الحروب والمعارك ؟ إنني شجاع مقدام أغشى ساحات القتال ، وأجيد الطعن والنزال ، وأحسن الكر والفر بجوادي المدرب على القتال ، المهيء للحروب ، فتارة أحمل به على الأعداء فأفرق جمعهم وأشتت شملهم ، وتارة أغزو به مع قوم أعدوا سيوفهم ، وأحكموا قسيهم ، وهو في كل ذلك يجيبني إلى ما أريد ولا يتأبى علي .

ثم يقول : إنك إن سألت عما يدور في ميدان القتال ، فإنك سوف تعلمين أنني أشترك في الحرب وأجلب النصر ، وأتحمل الخطوب ، ولكني عفيف النفس ، عالي الهمة ، أعف عند توزيع الغنائم ، لأنني لا أحارب من أجلها ، ولكني لا أقبل الضيم والهوان ، وعلى الرغم من أنني أستطيع احتواء هذه الأسلاب والغنائم إلا أنني لا أحفل بها لأن أصحاب المعالي لا يتلفتون إلى هذه الصغائر .

ثم يتحدث عن فروسيته وبسالته في الطعن فيقول : كم من فارس مدجج سلاحه ، واثق بنفسه ، لا يفر من أرض المعركة تخافه الأبطال وتفر من أمام هيبته القواد ــ عاجلته بضربة ، وطعنته طعنة نفذت إلى

جسده ، فسقط صريعا على الأرض ، وصار طعاما للسباع والحيوانات ، لقد نظر إلى هذا الفارس ولما علم أنى مدركه لا محالة ، ارتسمت على وجهه علامات الحزن والكآبة ، وكان جزاؤه منى أن أصابته طعنة أردته قتيلا .

لقد أوصانى عمى باقتحام المعارك ، ومناجزة الأبطال ، والصبر عند النزال ، ومازلت حافظا لوصيته ، وفيا لعهده ، أتقدم الصفوف ، وأستبسل فى القتال ، وأحقق لقومى شرف الانتصار .

ثم يصور المعركة التى دارت بينه وبين أعدائه فيقول : إننى حين رأيت الأعداء يقبلون علينا ، ويتحمسون لقتالنا ، وقد شرعوا رماحهم وأعدوا سيوفهم ، عندئذ قررت الحوم عليهم ، فاقتحمت صفوفهم ، وما زلت أضرب يمنة ويسرة حتى فرقت جموعهم ، وبددت شملهم وصرت أصول وأجول وأعاود الكر والفر حتى أجهدت فرسى ، وتسربل جسمه بدم الأعداء ، ولو كان فرسى يعرف لغة التخاطب لحدثنى فى شأنه ، وطلب منى الراحة مما يقاسيه ويعانيه من ضربات الأعداء .

لقد استنجد بى فرسان قومى ، وطلبوا منى الإقدام ، فما أحجمت ولا توانيت بل سرعان ما اقتحمت المعركة التى كانت تدور بين الكماة وتسمع فيها صليل السيوف وصهيل الخيول ، ودوى النبال .

ثم يتغنى عنترة ببطولته ، وقد بدا عليه الانفعال الشديد لبطشه بأعدائه فيقول : إننى حر أبى ، وإرادتى طوع همتى ،

وعقلى لا يغرب عنى ، إنه دائما يقودنى إلى النور وتحقيق ما أريد ،
لقد كنت أخشى أن أموت ولم أر أعدائى ، وقد دارت عليهم الدوائر
وحلت بهم النكبات ، إن حصين بن ضضم وأخاه هرما يتعرضان
لى بالشتم والإهانة فى غيبتى ،ولكنهما لا يستطيعان لقائى ومنازلتى ،
وإنى ألتمس لهما العذر فى ذلك لأنى قتلت أباهما فى حرب داحس
والغبراء ، وصيرته طعاما تأكل منه السباع والطيور .

نظرات نقدية :

هذا لون من الفخر الفردى الذى شاع فى العصر الجاهلى وفرضته طبيعة الحياة البدوية التى كانت تقوم على التنافس والصراع والغلبة .

وعنترة يحمل بين جنبيه قلبا شجاعا ونفسا أبية ، ترفض الذل ، وتأبى الضيم ، وهو فارس مغوار ، وبطل مقدام ،تتمثل فيه الفروسية الحربية فى أقوى صورها ، وأروع معانيها ، وتتجلى فيه فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر ، وفيها النبل وعفة النفس .

ويبدو عنترة فى معلقته شخصية فذة كونها النبل ، وصهرتها الشجاعة ، لقد توصل بشاعريته وبطولته ومزاياه الخلقية إلى تسنم الذروة التى عاش فى سبيل بلوغها،فساد القوم ، وأصبح حصنهم المنيع ،وقوتهم الضاربة .

وشعر عنترة يمتاز بعذوبة الألفاظ ورقة الأساليب ، وتدفق العبارة

فى سلامة ويسر ومعانيه واضحة قريبة التناول ، سهلة المأخذ بيد أنها لا تسير فى تسلسل منطقى وترابط عضوى ، لأن شعراء الجاهلية لم يكونوا يعنون كثيرا بترتيب الأفكار وانتظامها فى صورة واحدة عضوية على نحو ما نراه فى شعرنا الحديث الآن .

وشعره مرآة نفسه ، وصدى أحداث حياته ، وصورة صادقة لمشاعره ، وعواطفه ، فيه جوده ، وكرمه ، وعفته وبأسه ، وحلمه وإبائه ، وفيه انعكاس لنضاله وألمه .

وحسبه قول ابن سلام فى وصف معلقته إنها " قصيدة نادرة " وقول ابن رشيق : إن عنترة قد أتى فى هذه القصيدة بما لم يسبقه إليها متقدم .. ولا نازعه فيها متأخر " فلا غرو أن يكون عنترة رب السيف والقلم " .

ويذكر عنترة فى معلقته الكثير من عادات العرب فى القتال ، وعدتهم عند اللقاء فقد ذكر الفارس وهو يحتمى بدروعه ، مدججا بسلاحه و للكمى الذى يستر نفسه بالدروع والبيض " .

وكان من عادة القبائل العربية أنها توصى أبطالها بالثبات فى المعارك ويقدمون الشباب أول الصفوف للقاء الكماة ، يتقون بهم الأسنة وكانت القبائل تحرض بعضها بعضا على القتال ، وينادون المعروفين منهم بالشجاعة ، وكان الأبطال يجدون فى ذلك النداء اعترافا ببأسهم وقوتهم ، ومن ثم كانوا يحرصون على الموت لتوهب لهم ولأقوامهم الحياة .

وعنترة فى معلقته شاعر يتحدث عن البطولة فى البادية وعن المجتمع الذى كان يعيش فيه وعن الحياة التى كان يتأثر بها وعن دخائل نفسه حديث المصور الماهر، والشاعر العبقرى .

وتصور أبياته فضيلة الكرم التى تخلق بها العربى ، إذ كان ينفق الأموال ويطعم الطعام ويحتمل ديات القتلى الذين لم يكن له يد فى قتلهم .

وتعكس المعلقة فضيلة الشجاعة عند العرب ، فقد أصبحت مضرب الأمثال إذ كان العربى فى الجاهلية يسترخص أغلى ما يملك فى سبيل حريته وفى سبيل الحفاظ على كرامته ، وليس من سبب لطول الحروب عندهم إلا خلق الشجاعة الذى كان يجرى فى دمائهم .

ثانيا : زهير بن أبى سلمى (شاعر الصنعة)

حياة زهير :

هو زهير بن أبى سلمى بن رباح من بنى مزينة ، أحد الشعراء الفحول المقدمين فى الجاهلية ، وأجزلهم لفظا ، وأغزرهم حكمة ، وأكثرهم تهذيبا لشعره .

وأبوه ربيعة بن رباح من قبيلة مزينة ، وكان قد ترك ديار قومه ونزل ديار غطفان وعاش بين قوم منهم ، بنو عبد الله بن غطفان ، ولهذا ظن بعض الرواة أن زهيرا غطفانى القبيلة ، ولكن الصواب أنه مزنى النسب ، غطفانى المنشأة ، وقد صرح ابنه كعب بهذا النسب فقال :

هم الأصل منى حيث كنت وإننى
من المزنيين المتصفين بالكرم

ويقول الرواة : إن ربيعة بن رباح لم يعش طويلا ، وإن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حجر الشاعر التميمى المعروف ، فأخذ زهير يروى شعره ، حتى تأثر به فى فنه ، وكان أوس شاعرا فحلا من شعراء الطبقة الثالثة فى العصر الجاهلى (١) وقال عنه أبو عمرو

---

(١) الأغانى : ١ : ٦٠

ابن العلاء " كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه " (١) .

وقد تأثر زهير بأستاذه أوس ، فكان يصطنع مذهبه ، وينهج طريقته فى شعره .

ولزهير أستاذ آخر هو خاله بشامة بن الغدير الذى كان شاعرا مجيدا ، وشعره ينبئ عن نفس خبيرة بالحياة ، وقد أفاد زهير من خبرة خاله وتجاربه فعرف كثيرا من دروب الحياة ومسالكها حتى صار زعيم الشعراء الحكماء فى العصر الجاهلى .

وقد عاصر زهير حرب داحس والغبراء ، واصطلى بنارها ، تلك الحرب التى استمرت عشرات من السنين ، فعلى الرغم من أن زهيرا من قبيلة مزنية إلا أنه مجاور لبنى عبد الله بن غطفان ولبنى مرة القبيلة الذبيانية ، وكانت له صلة قوية ببنى مرة فما أصابهم فهو مصيبة ، ولذلك نجده يشهد نهاية هذه الحرب ويشيد بمن تحمل الديات فى سبيل السلم .

أخلاقه وصفاته :

كان زهير رجلا كريم النفس ، طيب الخلق ، سمح الطبع ، كما كان عفيفا حليما فيه نبل ومروءة ، أخذ نفسه بالتعقل والرزانة ،

---

(١) طبقات الشعراء : ١ : ٩٧ .

وسعة الصدر ، ومن ثم خلا شعره من الفحش والفجور، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس الذى كان مفتونا بالنساء شغوفا بالحديث عنهن . فزهير يمثل طبقة من الشعراء تؤثر الجد والوقار، وتجنح إلى المثل العليا ، وتعيش حياة الدعة والمسالمة .

يقول عنه ابن قتيبة : كان زهير يتأله ويتعفف فى شعره ، ويدل شعره على إيمانه بالبعث وذلك كقوله :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم (١)

ويقول أبو الفرج الأصفهانى : كان زهير فى الجاهلية سيدا كثير المال ،حليما معروفا بالورع فأكسبه ذلك احترام القوم وقربه إلى أشرافهم يمدحهم ويصلونه حتى كثر ماله فعاش عيشة السيد الوقور (٢) .

عاش زهير سيدا كريما ، مشهورا بالورع ، ميالا إلى الوقار، فقد نأى بنفسه عن حياة الطيش واللهو ، وآثر حياة الجد والاتزان ، وشعره يشهد بما اتصف به من مكارم الأخلاق، وعفة النفس ، وسماحة الطبع ، كما أنه شاعر له نظراته فى الحياة والأخلاق وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام ، وبما رسمه للفضيلة من مثل وقيم فيمن مدحهم .

---

(١) الشعر والشعراء : ١/١٣٩.

(٢) الاغانى : ١٤٨/٩ .

وقد عمر زهير طويلا ، ولكنه مات قبل الإسلام بمدة قليلة على أصح الروايات .

تكسبه بالشعر :

لم يكن زهير مثل الأعشى والنابغة فى اتخاذهما الشعر وسيلة للتكسب ، لقد سقط النابغة لأنه جعل المال غايته ، واتخذ الشعر أداة للحصول عليه ، وقال عنه الرواة : إنه كان شريفا غض منه الشعر ، وقد دفعه حبه للمال إلى أن يذهب إلى المناذرة ويمدحهم طمعا فى عطاياهم .

أما الأعشى فكان منهوما يكثر من الشهوات كالشراب والفسق والفجور ، فكان همه مصروفا إلى تحصيل المال بكل وسيلة ومن أى سبيل .

ولكن زهيرا لم يتكسب بشعره ، حقا لقد مدح هرم بن سنان ، وجازاه هرم على مديحه ، ولكن زهيرا لم يكن هدفه المال أساسا ، وإنما الإشادة بفضل هذا الرجل الذى حقن الدماء ، ونشر السلام بين قومه ، ودفع من ماله الخاص ديات القتلى وهذه مكارم هزت مشاعر زهير ، وأنطقت لسانه بالثناء على هذا الصنيع الكريم .

لقد ظل شاعرنا طوال حياته يمدح هرما ويمجده ، وهرم يغدق عليه الأموال والهبات وبذلك أعطى كل منهما صاحبه خير ما يملك ، فذهب ما أخذه زهير مع الأيام ، وبقى ما ناله هرم على مر الزمان .

عنايته بشعره :

وشعر زهير صورة صادقة للبيئة التى كان يعيش فيها ، لقد كان حريصا على تجويد شعره وتنقيحه وتهذيبه ، وهو فى ذلك متأثر بأستاذه أوس بن حجر، إذ كان ينهج طريقته ويرتضى مذهبه ، فلا يظهر شعره إلا بعد أن يطمئن إلى أنه قد بلغ الغاية من الجودة والكمال .

يقول الرواة : إنه كان يصنع قصائده فى أربعة أشهر ، ويراجعها فى أربعة أشهر ثم يعرضها على النقاد فى أربعة أخرى ، فلا ينشدها إلا بعد حول كامل ولذلك سميت قصائده هذه بالحوليات .

ومعنى هذا أن زهيرا كان من أساتذة هذه المدرسة التى عرفت فى تاريخ الأدب الجاهلى باسم " مدرسة المجودين " وكانت تضم من الشعراء الجاهليين أوس بن حجر، والنابغة الذبيانى ، وزهير ، وطفيل الغنوى ، ويطلق عليهم الأصمعى مدرسة " عبيد الشعراء " وهو يعنى أنهم يتكلفون إصلاحه ويشغلون به حواسهم وخواطرهم .

ولا خلاف بين رجال الأدب ونقاده فى أن زهيرا أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء فى الجاهلية وهم : امرؤ القيس ، وزهير والنابغة الذبيانى ، وتدل أخباره على عظم مكانته وعلى أنه قد نال حظه من الشهرة ، وبعد الصيت ، ولم تحم حوله شبهات الوضع ، والانتحال ، كما حدث لغيره من شعراء الجاهلية .

وإذا كان امرؤ القيس قد ابتدع أشياء استحسنتها العـرب ، وتبعـه الشعراء فيهـا ، فإن زهـيرا قد امتـاز فى شعـــره بأنه لا يعاظـل فى الكـلام ، ولا يتتبـع حوشيــه ، ولا يمـدح أحدا إلا بما هو فيــه .

المذهب الفني عند الشاعر زهير بن أبي سلمى

كان الشعر الجاهلي — وكما وصلتنا نماذجه — يعتمد على فن التصوير اعتمادا كليا ، وهو في أقدم نماذجه يغلب عليه الخيال ، والتصوير ، وكان الشاعر يحاول جهده أن يوفر في شعره كثيرا من القيم التصويرية .

على أننا لا نصل إلى نهاية العصر الجاهلي حتى نجد الشعراء ينحون بهذا الجانب الفني منحى جديدا يودعون فيه من ضروب المهارة والصناعة ، وقد تمثل هذا خير تمثيل عند الشاعر زهير بن أبي سلمى ، فإذا تذكرنا عمله في قصائده ، وأنه يبقيها عنده سنة كاملة ، يستبدل كلمة بأخرى ، أو تركيبا بآخر ظهر لنا أن التصوير في شعره لم يحصل له بسهولة وإنما هو ناتج عن مذهبه الفني المشهور .

ولعل خير من يمثل مذهب الصنعة ويفسره في الشعر الجاهلي هو الشاعر زهير بن أبي سلمى صاحب الحوليات ، فإلى جانب أنه شاعر موهوب نجده يأخذ شعره بالتنقيح والصقل ، والفحص والامتحان وطول التفتيش ، وكان يعيد فيه النظر بعد النظر ، ويجمع له كل ما يمكن من وسائل التجويد ، ولذلك قيل عنه : " لعل الشعر الجاهلي لم يعرف شاعرا عني بتحقيقه عناية زهير " (١) . وقال عكرمة بن جرير : قلت لأبي :

---

(١) تاريخ الأدب العربي د . شوقي ضيف (العصر الجاهلي) : ٣٠٦ دار المعارف ، ط ٧ .

من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلامية ؟ قلت : جاهلية ، قال : زهير" (١).

فزهير شاعر مصور من الطراز الممتاز ، وكان يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، وليس هناك شك فى ذلك ، فقد كان ينظم القصيدة فى شهره وينقحها ويهذبها فى سنة ، ثم يعرضها على خواصه ثم يذيعها بعد ذلك" (٢).

وزهير لا يعتمد فى نظمه للشعر على "فن الموسيقى" فقط ، ولكنه ركز اهتمامه على فن آخر مهم هو فن "التصوير" وحاول أن يوفر فى شعره كثيرا من القيم التصويرية ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الدكتور / شوقى ضيف وهو بصدد حديثه عن زهير يقول : "إنما اللون الفاقع فى شعره هو التصوير" (٣).

وليس من شك فى أن زهيرا كان يلقى عناء شديدا فى هذا التوفير الذى كان يستلزم منه جهدا فنيا خاصا كى يبلغ شأوه الذى يريده .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر : ١٣٨/١ .

(٢) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، جمع وتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطى : ٢٨ ، دار القلم ، بيروت .

(٣) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) : ٣٢٩ .

إذ نراه يتقيد بقيود كثيرة في كل ما يختاره في صنع نماذجه من أدوات تصويرية ، أو أسلوبية ، أو معنوية ، وكأنما تحولت الموهبة عنده ، إلى ممارسة وصنعة ، وقد حدثنا الرواة أنه أقبل على صناعته إقبال الصانع على حرفته ، وقد التمسه بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التي يحسنها إلى أبعد حد " (١).

وعلى هذا فهو شاعر ومعلم للشعر ، وجاء شعره متقنا مجودا ولهذا يعد من عبيد الشعر ، يقول الأصمعي : " زهير والحطيئة وأشباههما (من الشعراء) عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين " (٢).

وزهير صاحب مدرسة كانت تعتمد على الأناة والروية ، وهو صاحب قصائد عرفت بالحوليات والمنقحات والمحكمات ، ولا غرابة في أن يكون زهير هكذا ، فهو شاعر خرج من بيت شعر ، يقول الدكتور شوقي ضيف : " ومن يتتبع القدماء في درسهم له يجدهم يلاحظون أنه خرج من بيت شعر ، إذ كان زوج أمه أوس بن حجر شاعرا ، وكذلك كانت أخته شاعرة ،

---

(١) المرجع السابق : ٣٢٦ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١ / ٧٨ ، ١٤٤ .

وكان ابنه كعب شاعرا مشهورا ، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة معروفة ، ولكعب أخ يسمى بجيرا كان شاعرا أيضا ، وإذا استمرزنا وجدنا لكعب أبناء وأحفاد من الشعراء .(١)

التصوير في شعر زهير :

ولعل أهم جوانب التصنيع التي يستخدمها زهير هو جانب التصوير ، إذ كان شغوفا به شغفا شديدا ، وكأنه — أي التصوير — غاية في نفسه ، أو أصل مهم من أصول صناعته ، وقد استطاع زهير وهو صاحب مدرسة في ذلك أن يستخدمه استخداما واسعا في شعره ، ولهذا فضله كثير ممن لهم معرفة بنقد الشعر على امرئ القيس والنابغة وأضرابهما (٢) وعده النقاد باعتبار الإجادة من رجال الطبقة الأولى .(٣)

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٢٥ ، دار المعارف ط١٠ ،
وانظر كذلك أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمري : ٢٦٩/١
و٢٧١ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م .

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمري : ٢٧١/١ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات : ٤٦ الطبعة الرابعة والعشرون .

والباحث في شعر زهير يشعر أن الشاعر جمع لشعره كل ما يمكن من وسائل التجويد والإتقان ، فهو يكثر من التشبيه والمجاز والاستعارة وكان بارعا في صنع الصور والتشبيهات ، وهي براعة نرى آثارها في كل صفحة من صفحات ديوانه ، ونحن نرى أفكاره تتلاحق في صفوف من التشبيهات وكأنه يأبى أن يخرج كثيرا من أبياته إلا ويوشيها به ، حتى ظهرت قصائده وفي كل جانب منها صورة أو تشبيه وهي صور وتشبيهات أودعت فيها ضروب كثيرة من المهارة ما يزال زهير يحاول أن يحدث بها تمييزا لشعره ، ويجعله يغاير ما ألفناه عند امرئ القيس مغايرة تامة .

وهذا اللون من التصوير الذي اختاره زهير لا يعتمد على تراكم التشبيهات والصور ، ولكنه لون معقد يعقده زهير بطريقته ، وقد يقول قائل ، هل هذا نتيجة لاستخدامه الألوان من الزخرف العقلي ؟ ونحن نقول إن زهيرا لم يستخدم مثل هذا اللون ، ولم يكن ليقدر أن يستخدمه .. وجملة القول أنه انحاز إلى التشبيه والصور ، وذهب يوشي بهما أبياته ، ويطرز بهما قصائده ، وأظهر في ذلك براعة لم تتسع لشاعر جاهلي قبله ، هذا إلى جانب أنه يطرف قارئه بالصور النادرة ، وصوره في ذلك ليست من هذا اللون الذي وسمه الأدباء والنقاد بالجمود والتحجر ، ولكنها صور مليئة بالنضرة والبهجة ، وهي في نضرتها تعبر عن روعة الفن بأجمل ما تعبر عنه الوجوه الحقيقية .

استقصاء الصورة عند زهير :

لعل أول ما يسترعى أنظارنا فى صور زهير بن أبى سلمى أنه كان ولوعا باستقصائها وتحقيقها لا بتراكمها كما هو الحال عند امرىء القيس وكان يعتمد على أن تكون هذه الصور واسعة سعة تتضمن التفصيل والتفريع وكأنه يريد أن يحملها أكثر طاقة ممكنة فى التمثيل ، ولنا أن نقول إن زهيرا يصنعه فى صوره هذا الصنع ويحرصه على تمثيلها بكل فروعها وجزئياتها كأنه ينوى تحقيقها وبحثها .

وليس هناك شك فى أن زهيرا كان يحسن الوصف والتصوير ، لا بما يسوقه من صور بيانية وتشبيهات فحسب ، بل بما يعمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه وبما يبث فيه من حياة وحركة . وأكبر الظن أنه كانت له به قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويرا بارعا ، وكان له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيلها بكل ما يتصل بها من منظر وهيئة وحركة ، وأنه اندفع إلى ذلك تحت تأثير اهتمامه باستخدام أدوات التصنيع ، واستخدامه لأداة التشخيص ساعده هو الآخر على أن يصور المعانى والأشياء تصويرا مجسما ، فإذا لها كل ما للأحياء من خواص وصفات ، فهى تعقل عقلها ، وهى تحسن إحساسها ، وتشعر شعورها .

ومن ينظر معلقته (1) التى مدح فيها هرم بن سنان والحارث

---

(١) ديوان زهير بن أبى سلمى ص ٧٣ وما بعدها ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

ابن عوف وحذر فيها من الحرب يرى صورة صحيحة لتصويره ، وهـــى تصور مهارته فى صنع صوره ، كما أنها تعد مستودعا لمعظم أدوات صناعته.

فهو يقول فى مستهلها :

أمِنْ أمِّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تكلَّــمِ
بحومانةِ الدراج فالمتثلــمِ (١)

ودارٌ لها بالرقمتين كأنهـــا
مراجيعُ وشمٍ فى نواشرِ معـــصمِ (٢)

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلفـةً
وأطلاؤها ينهضْن من كل مَجثمِ (٣)

---

(١) أم أوفى : زوجة لزهير ، والدمنة : ما اسود من آثار الدار ، حومانة الدراج والمتثلم : موضعان .

(٢) الرقمتان : موقعان متباعدان . مراجيع وشم : أى وشـــم مرجع ومردد . نواشر المعصم : عروقه .

(٣) العين : بقر الوحش . الآرام : الظباء البيض ، خلفه : يخلف بعضها بعضا . الأطلاء : جمع طلا هو ولد الظبية والبقـــرة الوحشية .

وقفت بها من بعد عشرين حِجَّةً

فلأياً عرفتُ الدار بعد توهم (١)

أثافى سُفْعاً فى مُعَرَّس مِرجَلٍ

ونؤياً كجِذْمِ الحوض لم يتثلَّم (٢)

فلما عرفتُ الدار قلتُ لربعها

ألا انعِمْ صباحاً أيها الربعُ واسلَم

---

(١) الحجة : السنة . اللأى : الجهد والمشقة .

(٢) الأثافى : حجارة توضع القدر عليها . سفعا : سوداء . المعرس : موضع المرجل . المرجل : القدر . النؤى : حاجز من تراب . جذم الحوض : جرفه وأصله . لم يتثلم : لم يتهدم .

فزهير مع أنه لم يكن من هؤلاء الذين أغرموا بالحب وشغفوا به نراه يقدم لهذه المطولة بالغزل لا عن رغبة ، ولكنه يتبع فى ذلك سنة الجاهليين فى الوقوف بالأطلال وذكر الديار ، وواضح من هذه الصورة التى استهل بها زهير مطولته ما سبق أن قلناه من أنه كان يعنى عناية بالغة فى إعطاء صوره حقها من التفصيل والتفريع ، فهو يجعل الدار — وهى مكان صورته — مقاما للوحوش ، فأنت تراها تمشى خلف بعضها ، وترى أطلاءها الصغار ينهضن من كل ناحية منها لترضعها أمهاتها . وانظر إلى لفظة "خلفة" فى الشطر الأول من البيت الثالث تراها تضفى على الصورة حركة ملموسة ، هذا إلى أن الشاعر قد عمد فى البيت الرابع أن يذكر الزمان كى يحدث التأثير المطلوب فى قرائه ، وهو يريد أن يتم الصورة ويلحق بها كل دقائقها وتفاصيلها ولذلك نراه يذكر الأثافى والنؤى .. هذا بالإضافة إلى استخدامه الألفاظ والعبارات التى تجعل المنظر وكأنه يتحرك تحت أعيننا .

وهو يستمر فى مطولته فيصف الظعائن قائلا (١) :

تبصّر خليلى هل ترى من ظعائنٍ
تحمّلن بالعلياء من فوق جُرثُمِ (٢)

---

(١) ديوان زهير : ٧٦ — ٧٨

(٢) العلياء : بلد مرتفع فى نجد . جرثم : مورد ماء من مياه بنى أسد .

جعلن القنان عن يمين وحزنه (١)
وكم بالقنان من محلٍّ ومحرم

علون بأنماطٍ عتاقٍ وكلةٍ (٢)
ورادٍ حواشيها مشاكهة الدم

ووركن في السوبان يعلون متنه (٣)
عليهن دل الناعم المتنعم

بكرن بكوراً واستحرن بسحرة (٤)
فهن ووادي الرس كاليد للفم

---

(١) القنان : جبل لبني أسد ، الحزن : الأرض الصلبة المرتفعة ،
محل ومحرم : يقصد العدو والصديق .

(٢) الأنماط : جمع نمط وهو ما يبسط من صوف الثياب . الكلة : الستر الرقيق المثقب ، وراد : حمراء ، حواشيها : نواحيها .

(٣) وركن : ثنين أرجلهن . السوبان : الأرض المرتفعة . الدل : حسن الهيئة .

(٤) استحرن : خرجن سحرا . الرس : مدينة غربي القصيم .

وفيهن ملهىً للطيف ومنظرٌ
أنيق لعين الناظر المتوسمِ (١)

كأن فُتات العِهْن في كل منزل
نزلن به حَبُّ الفنا لم يُحَطَّمِ (٢)

فلما وَرَدْنَ الماء زُرْقاً جمامُهُ
وضعن عِصِيَّ الحاضر المتخيِّمِ (٣)

ظهرن من السُّوبان ثم جَزَعْنَهُ
على كل قَيْنِيٍّ قشيبٍ ومُفْأَمِ (٤)

---

(١) الملهى : اللهو وموضعه . المتوسم : المتفرس .

(٢) الفتات : اسم لما أنفت من الشيء أى تقطع . العهن : الصوف . حب الفنا : عنب الثعلب الأحمر .

(٣) الزرقة : شدة الصفاء . الجمام : مجتمع الماء . وضع العصى : كناية عن الإقامة .

(٤) جزعنه : قطعنه . القيني : الرحل . قشيب : جديد . مفأم : واسع .

فزهير يسأل صديقه عما إذا كان قد أبصر الظعائن وهن يعلون الروابي ويهبطن الوديان ببلدة العلياء القريبة من مياه جرثم . ثم يذكر علامات واضحة لهؤلاء الظعائن فيقول إنهن اتخذن الستائر الرقيقة الحمراء زينة لهوادجهن . وأخذ زهير يحدد بكل دقة المواقع التي مرت بها الظعائن أو نزلت فيها . كما حدد وقت خروجهن للارتحال . وأنهن خرجن وقت السحر . واستطعن أن يجتزن الطريق بنجاح . فقد جعلن جبل القنان وما حوله من أرض عن يمينهن . مع أن هذه المنطقة تضم العدو كما تضم الصديق . ولعل زهيرا أدرى من صديقه فيما يسأل . ويؤكد ذلك أنه عد المواقع التي مرت بها الظعائن بكل دقة وتفصيل .

ويتابع زهير أبيات معلقته فيقول :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حولـــه
رجال بنوه من قريش وجرهـــم (١)

يمينا لنعم السيدان وجدتمـــا
على كل حال من سحيل ومـــبرم (٢)

تداركتما عبسا وذبيان بعد مـــا
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشـــم (٣)

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعـــا
بمال ومعروف من القول نسلـــم

فأصبحتما منها على خير موطـــن
بعيدين فيها من عقوق ومأثـــم (٤)

عظيمين فى عليا معد هديتمـــا
ومن يستبح كنزا من المجد يعظـــم

---

(١) جرهم : قبيلة قديمة ، تزوج فيهم إسماعيل عليه السلام .
(٢) السحيل : المفتول على قوة واحدة ، والمبرم : المفتول على قوتين .
(٣) التدارك : التلافى ، ومنشم : قيل فيه إنه اسم امرأة عطارة .
(٤) العقـــوق : العصيان ، والمأثم : الإثم .

تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت
ينجمها من ليس فيها بمجرم (١)

ينجمها قوم لقوم غرامة
ولم يهريقوا بينهم ملء محجم (٢)

فأصبح يجرى فيهم من تلادكم
مغانم شتى من إفال مزنم (٣)

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة
وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم

---

(١) التعفية : التمحية ، من قولهم عفا الشيء يعفو : إذا انمحى ودرس. ينجمها : أى يعطيها نجوما .

(٢) أراق الماء والدم يريقه ، وهراقه يهريقه : لغات بمعنى واحد . والمحجم : آلة الحجام .

(٣) التلاد والتليد : المال القديم الموروث ، والإفال : الصغير السن من الإبل ، جمع أفيل ، والمزنم : المعلم بزنمه .

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم (١)

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرى إذا ضريتموها فتضرم (٢)

فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم (٣)

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم (٤)

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها
قرى بالعراق من قفيز ودرهم

لعمرى لنعم الحى جر عليهم
بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

---

(١) الحديث المرجم : الذى يرجم فيه بالظنون ، أى يحكم فيه بصنوفها.

(٢) الضرا : شدة الحرص .

(٣) ثفال الرحى : خرقة أو جلدة تبسط تحتها ليقع عليها الطحين ، واللقح واللقاح : حمل الولد ، والكشاف : أن تلقح النعجة فى السنة مرتين .

(٤) الشؤم : ضد اليمن ، وأراد بأحمر عاد : أحمر ثمود ، وهو عاقر الناقة ، واسمه قدار بن سالف .

وكان طوى كشحا على مستكنـــه
فلا هو أبداهـــا ولم يتقـــدم (١)

وقال سأقضى حاجتى ثم أتقـــى
عدوى بألف من ورائى ملجـــم

فشد فلم يفزع بيوتا كثـــيرة
لدى حيث ألقت رحلها أم قشعـــم (٢)

لدى أسد شاكى السلاح مقـــذف
له لبد أظفـــاره لـــم تقلـــم

جرئ متى يظلـــم يعاقب بظلمـــه
سريعا وإلا يبـــد بالظلـــم يظلـــم

رعوا ظمأهم حتى إذا تـــم أوردوا
غمارا تفرى بالسلاح وبالـــدم (٣)

فقضوا منايا بينهم ثم أصـــدروا
إلى كلأ مستـــوبل متوخـــم (٤)

---

(١) الكشح : منقطع الأضلاع ، والكاشح : المضمر العداوة فى كشحه .
(٢) أم قشعم : كنية المنية .
(٣) الغمار : جمع غمرة وهو الماء الكثير ، والتفرى : التشقق .
(٤) قضيت الشئ : أحكمته ، وأصدرت : ضد أوردت . واستوبلت الشئ : وجدته وبيلا . واستوخمته وتوخمته : وجدته وخيمـــا .

لعمرك ما جرت عليهم رماحهم
دم ابن نهيك أو قتيل المثلم
ولا شاركت في الموت في دم نوفل
ولا وهب منهم ولا ابن المخزم
فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه
صحيحات مال طالعات بمخرم (١)
لحي حلال يعصم الناس أمرهم
إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم (٢)
كرام فلا ذو الضغن يدرك تبله
ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم (٣)

---

(١) عقلت القتيل : أديت عنه الدية التي لزمته .
(٢) الطرق : الإتيان ليلا .
(٣) الضغن والضغينة : واحد وهوما استكن في القلب من العداوة ، والجمع الأضغان والضغائن ، والتبل : الحقد ، والجارم : ذو الجرم .

ويأتى فى المعلقة بأبيات تجمع الحكم فيقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم (١)

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن يوف لا يذمم ، ومن يهد قلبه
إلى مطمئن البر لا يتجمجم (٢)

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم

ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمده ذما عليه ويندم

---

(١) يفره : لا ينقصه .
(٢) لا يتجمجم : لا يتردد فى الصلح .

ومن يعص أطراف الزجاج فإنــــه

يطيع العوالى ركبت كل لهــــذم (١)

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحـــه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلــــم (٢)

ومن يغترب يحسب عدوا صديقــــه

ومن لا يكرم نفســه لم يكـــــرم

ومهما تكن عند امرئ من خليقـــــة

وإن خالها تخفى على الناس تعلــــم

وكائن ترى من صامت لك معجـــب

زيادته أونقصــه فى التكلـــــم

لسان الفتى نصف ونصف فــــؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحـــم والـدم

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعــــده

وإن الفتى بعد السفـاهة يحلــــم

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتـــــم

ومن أكثر التســـآل يوما سيحـــرم

---

(١) الزجاج : جمع زج ، وهو أسفل الرمح ، العوالى : جمع عالية ، وهى أعلى الرمح التى يكون فيها السنان ، واللهذم : السنـان الطويل الحاد .

(٢) الذود : الكف والردع .

والحقيقة أن أفكار زهير بن أبى سلمى فى حكمه التى مرت إنمـــا تمثل خلاصة تجاربه ونظرته للحياة والناس .

فهو يرى أن الإنسان يمل من الحياة عندما يصبح شيخا كبيرا ، كما يرى أن المنية مثل خبط الناقة العشواء ، وهى فكرة غير صائبـــة لأنها تخالف القضاء والقدر ، كل ما فى الأمر أن الشاعر قد برع فـــى استخلاص ما يهم الناس من تجاربهم الكثيرة ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل أفكار الشاعر مطابقة للواقع ، فهى حقائق ثابتة مسلم بها .

وهدف زهير من وضع هذه الحكم فيما نرى إنما هى الرقـــى بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فهو يتمنى أن يفهم مجتمعه الواقـــع على حقيقته ليتجنب الضرر قبل أن يقع فيه ، وهو من جهة أخـــرى يتطلع إلى أن يترك قومه بعض العادات السائدة ، من التطاول ومعارضة الحق ، والسير فى طريق الباطل .

والحق أنه كان لزهير ما أراد ، فقد أثرت حكمه فى المجتمـــع ، وأصبحت دروسا تعظ الناس وتبعدهم عن الشر ، وتقربهم للخـــير . كل ما فى الأمر أننا حينما ننظر إلى أبيات زهير التى تجمع الحكـــم فإننا لا نرى بينها رابطا ، إذ من الممكن أن نقدم ونؤخر فيها بسهولـة ولا يتأثر المعنى العام ، والشيء الذى يجمع بين هذه الحكم إنما هـــو المثل العليا السائدة فى القبائل العربية فى العصر الجاهلى .

وزهير هو شاعر الصنعة فى الشعر الجاهلى ، يعرف كيف ينتقى ألفاظه فى أبياته بصفة عامة وفى أبيات الحكمة بصفة خاصة ، ولذلك خرجت

حكمه تتميز بوضوحها ، فهى أفكار واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، وليست قابلة للتأويل ، كما هو الحال عند شعراء العصر العباسى (أبى تمام ، والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى) فهذه الأفكار هى عصارة الفكر الجاهلى ، وقد قالها زهير على طبيعته الخالية من الترف العقلى الذى ساد فى أيام الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى .

وأسلوب زهير تتوافر فيه اللباقة ، فهو يتوخى سلوك الطريق السهل ،فيستعمل التشبيه أحيانا فى قوله (رأيت المنايا خبط عشواء) ويستعمل التقسيم إذا رآه يخدم الأسلوب ، كما فى قوله : (لسان الفتى نصف ونصف فؤاده) كما أنه لجأ إلى طريقة التشويق ،فاعتمد على الشرط فى كثير من أبياته ، الأمر الذى يجعل القارئ ينتظر الجواب دائما ، ويتطلع إليه ، ونحن إذا تذكرنا عمل زهير فى قصائده ، وأنه يبقيها عنده سنة كاملة يعيد النظر فيها ، فيستبدل كلمة بأخرى ، أو تركيبا بآخر ، ظهر لنا أن جودة أسلوبه ،وانتقاء ألفاظه ،وإحكام تراكيبه ، لم تحصل له بسهولة ، وإنما هى ناتجة عن صنعته التى اشتهر بها .

والشاعر لم يقف عند وصف الظعائن ولم يكتف بذلك ، ولكنه أخذ يستقصي ويدقق ويرسم خريطة جغرافية يوضح فيها ويفصل مواضع نزول الظعائن والموانع التي مررن بها ، وما يزال يتبعهن وهن راحلات من واد إلى واد وهو في كل ذلك لا ينسى أن يعطي كل مكان صورته بالتفصيل ويعرض علينا صورة واسعة في معان متسلسلة ومستقصاة ، وهذا هو معنى ما نقوله من أن زهيرا كان يستقصي صوره ويحققها ، وأن صوره واسعة سعة تتضمن التفصيل والتفريع ، وكأنه يحاول أن يثبت الصورة في أذهاننا .

وإننا لنعجب من الصورة البديعة التي جاء بها في البيت السابع [1] والتي تدل على مقدرة بيانية رائعة ، فقد شبه ما تفتت من العهن الذي علق بالهودج ، وما تناثر منه في كل منزل نزلت فيه الظعائن بسبب تعلق أطراف الأنماط والكلة بالنباتات الموجودة ، هذه الصورة وبداخلها فتات العهن تشبه حب الفنا الأحمر اللون حال إلقائه على الأرض صحيحا غير محطم أو مكسر ، لأن عدم تحطيمه فيه حفاظ على لونه الأحمر وعلى شكله المستدير القابل للتدحرج من مكان لآخر تحت تأثير أية حركة تحركه .

---

(١) كأن فتات العهن ....

وكنتيجة من نتائج اهتمام زهير بتفصيل صوره نراه يعنى عناية شديدة بتلوينها وبث الحركة فيها ، وهو لم يدخر وسعا فى توفير الألوان للصورة التى معنا ، وكأن دقة التصوير تفرض عليه الاهتمام بتلوين صوره كما فرضت عليه لجوءه إلى ذكر التفاصيل والجزئيات . ونلمس ذلك من تلوين الأنماط العتاق والكلة ذات الحواشى الحمراء التى وشت بها النساء هوادجهن والمشابهة للدم . وهو لا يقف بصورته عند هذا الحد ، ولكنه يأتى فى البيت السابع بصورة فيها اللون والحركة كما سبق أن أشرنا ، ويلفتنا كذلك ما أضافه للصورة من ألوان أخرى كتلك المياه الزرقاء فى البيت قبل الأخير ، والتى صور صواحبه وهن ينتهين إليها ويلقين عصا الترحال عندها ، وكأن اللون الأحمر الذى جاء به فى البيت الذى قبله لا يكفى الصورة .

ولا يفوتنا أن نقول إن هناك عوامل أخرى ساعدت على روعة هذه الصورة ، فقد وفق الشاعر فى اختيار ألفاظه ، وفى صوغ عباراته وانتقاء معانيه . وانظر إلى دقة الصنعة فى استخدام الشاعر للونى الطباق والجناس ، فهو وإن كان لا يتقيد بالطباق لكنه يستخدمه فى الحين بعد الحين ، فيطابق بين " محل " ومحرم " ، كما يجانس بين " ناعم " و" متنعم " وهو بهذه المجانسة يكون قد وفق فى انتقاء معناه ، هذا بالإضافة إلى أن الشاعر قد توصل بهذه الشطرة القليلة الكلمات إلى معان واسعة ورائعة مفادها أن هؤلاء النسوة لم يتكلفن فى إظهار دلائل النعمة ونعومة العيش ، ولكن الترف يظهر عليهن ظهورا طبيعيا دون أدنى تصنع فى إظهاره ، وفى قوله " بكرن بكورا واستحرن بسحرة " نجده يجانس بين بكرن وبكورا وبين استحرن

وسحرة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على دقة الشاعر في تحديد موعد خروج الظعائن .

ولنأخذ أبياتا أخرى لزهير يصف فيها فرسه وهو يعده للصيد لنرى كيف يعرض صوره ، وكيف يعمد فيها إلى التفصيل والتفريع . يقول (١) :

فبِتْنا عُراةً عند رأس جوادنا .. يُزاوِلنا عن نفسه ونزاولُه (٢)
ونضربه حتى اطمأن قَذالُه .. ولم يطمئن قلبه وخصائلُه (٣)
ومُلْجِمُنا ما إن ينال قَذالَه .. ولا قدماه الأرض إلا أناملُه
فلأيا بلأي ما حملنا وليدنا .. على ظهر محبوكٍ ظِماءٍ مفاصلُه (٤)

---

(١) ديوان زهير : ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) بتنا عراة : أي بتنا في أرض عارية لا يسترنا فيها شيء . يزاولنا : يعالج مدافعتنا . نزاوله : نعالج إلجامه وركوبه .

(٣) اطمأن قذاله : خفض رأسه ، والقذال : معقد عذاره في رأسه . الخصائل : جمع خصيلة : كل لحمه في عصبه .

(٤) المحبوك : المتين الخلق المدمج . ظماء مفاصله : مفاصله ليس عليها لحم .

وقلت له : سَدِّدْ وأبصر طريقه .. وما هو فيه عن وَصاتى شاغله (١)

وقلت : تعلّم إن للصيد غرة .. وإلا نضيّعها فإنك قاتله

فتبّع آثار الشياه وليدنا .. كشؤبوب غيث يخفش الأكم وابله (٢)

يثرن الحصى فى وجهه وهو لاحق .. سراع تواليه صياب أوائله

فرد علينا العير من دون إلفه .. على رغمه يَدْمى نساه وفائله (٣)

فالشاعر يقول إنهم باتوا يروضون الفرس للصيد حتى جاء الصباح فالجمه الغلام وهو يشق عليه أن يطوله لضخامته ، وزهير يعلمه كيف يطارد الصيد ، وهم لا يزالون يستحوذ عليهم الفذع الشديد نظرا لحرصهم الزائد على طلب الصيد ، وكأن الجواد قد أحس مما هم فيه فتملكه الفزع أيضا من جميع أطرافه ، وظل يجاهدهم وهم يجاهدونه .

---

(١) سدد : أى قوم صدر الفرس .

(٢) الشؤبوب : الدفعه من المطره يخفش الأكم : يكثر سيل الأكم حتى يستخرج ما فيها .

(٣) إلفه : أى أتانه . النسا والفائل : عرقان ذكرهما ليخبر بحذق الوليد بالطعن .

والصورة التى جاء بها زهير فى الأبيات رائعة ، بل إننا نحس ونحن نقرأ الأبيات أننا نلقى كل خصائص زهير فى التصوير . وهو لم يكتف بوصف فرسه جملة ، ولكنه عمد إلى التفصيل والتحقيق والتفريع ، وأخذ يصور الهيئات الجسدية والحالات النفسية فيما يصفه ، وجعلنا نقف على نشاط ذلك الفرس وحركته وعلو رأسه وسرعته التى لا تمكن الراكب من الاطمئنان فوق ظهره ، كما صور مطاردة الغلام للأتن ، وانطلاقه كالشؤبوب أو كالصاعقة من السماء ، والأتن تثير الحصى فى وجه الفرس ، وهو لا ينثنى عن مطاردتها ، كل ذلك فى تعبير رائع يجعلنا نتابع الصورة التى رسمها لنا بكل شغف .

وزهير يبرع فيما يصفه من تصوير الهيئات الجسدية والحالات النفسية ، سواء أكان الموصوف إنسانا أم حيوانا ، وكأنه أوتى مقدرة عجيبة تجعله يلتقط سرائر النفس وما يعتريها من أحاسيس وهواجس .

ففى قصيدة دالية له تراه يصف بقرة الوحش ومطاردة الصائد لها بينما يفترس سبع من السباع وليدها ، يقول (١) :

كخنساء سفعاء الملاطم حرة
مسافرة مزؤودة أم فرقد (٢)

---

(١) ديوان زهير : ٢١/٢٢ .

(٢) الخنساء : بقرة الوحش ، السفعاء : السواد فى حمرة ، مزؤودة : مذعورة . الفرقد : ولد البقرة .

غدت بسلاح مثله يتقى بــــه

ويؤمن جأش الخائف المتوحـــد (١)

وسامعتين تعرف العتق فيهمـا

إلى جَذرٍ مدلوك الكعوب مُحَـــدد (٢)

وناظرتين تطحران قذاهُمـــا

كأنهما مكحولتا بإثمـــد (٣)

طَبَاها ضحاء أو خلاء فخالفـــت

اليه السباغ في كناس ومرقـــد (٤)

أضاعت فلم تغفر لها خلواتهـــا

فلاقت بيانا عند آخر معهـــد (٥)

دما عند شِلْوٍ تحجلُ الطير حولـه

وبَضْعَ لحامٍ في إهاب مُقَـــدَّد (٦)

وتنفُضُ عنها غيبَ كل خميلـــة

وتخشى رماة الغوث من كل مَرْصـد (٧)

فجالت على وحشيها وكأنهـــا

مُسربلة في رازقيّ مُعَضـــد (٨)

ولم تدر وشك البين حتى رأتهُمُ

وقد قعدوا أنفاقها كل مقعـــد (٩)

وثاروا بها من جانبيها كليهمـــا

وجالت وإن يجشمنها الشد تجهـــد (١٠)

تبذ الألى يأتينها من ورائهـــا

وإن يتقدمْها السوابقُ تَصْطـــد (١١)

فأنقذها من غمرة الموت أنهـــا
رأت أنها إن تنظر النبـــل تقصـــد (١٢)

نجاءٌ مُجِدٌّ ليس فيه وتـــيرة
وتذبيبُها عنها بأسْحَم مِـــذْود (١٣)

وجدّت فألقت بينهن وبينهـــا
غبارا كما فارت دواخِنُ غرقـــد (١٤)

بملتئماتٍ كالخذاريفِ قوبلـــتْ
إلى جوشنٍ خاظى الطريقة مسنـــد (١٥)

معانى المفردات :

١ ـ أراد بالسلاح قرنيها . الجأش : الصدر . المتوحد : الوحيـد
٢ ـ السامعتان : الأذنان . تعرف العتق : كناية عن أنهمـــا محددتان . إلى جذر : مع جذر والجذر هو الأصل . مدلـوك الكعوب : أملس العقد ، وأراد به قرنيها فهما محددان أملسا الرأس .
٣ ـ تطحران : ترميان . الإثمد : نوع من الكحل الأسود .
٤ ـ طباها : دعاها . الضحاء للإبل : مثل الغذاء للإنســـان. خالفت إليه : قصدت إليه . الكناس : بيت البقرة الوحشيـــة .
٥ ـ أضاعت : غفلت عن ولدها . لافت بيانا : استبانت الجلد والدم من بقايا ولدها .
٦ ـ الشلو : بقية الجسد . تحجل : تمشى مشى المقيد . الإهاب : الجلد . القدد : المشقق .

٧ ـ تنفض : تنظر هل ترى فيه ما تكره • الخميلة : الرملة بها شجر • الغوث : قبيلة من طئ اشتهر أهلها بالرماية •

٨ ـ الوحش : الجانب الذى لايركب منه وهو الأيمن • الرازقى : ثوب أبيض • المعضد : اا عط •

٩ ـ وشك البين : سرعة فراق ولدها • الأنفاق : المخارج والطرق •

١٠ ـ يجشمنها : يكلفنها العدو ويحملنها عليه • تجهد : تسرع •

١١ ـ تبذ : تسبق وتغلب • السوابق : الكلاب • تصطد : أى تضرب بقرنيها ما تقدمها من الكلاب وتعقرهم •

١٢ ـ تنظر النبل : أى تنظر أصحاب النبل • تقصد : تقتل •

١٣ ـ النجاء : السرعة • الوتيرة : التلبث والانتظار • تذبيبها : دفاعها عن نفسها • الأسحم : الأسود • المذود : القرن •

١٤ ـ جدت : أسرعت فى العدو • الدواخن : جمع دخان • الغرقد : شجر له شوك •

١٥ ـ الملتئمات : القوائم يشبه بعضها بعضا • الخذاريف : جمع خذروف وهو لعبة يلعب بها الصبيان •

فزهير قد استتر فى هذا الوصف الصورة التى ننتظرها منه ، فلقد وشاها بالتشبيه وملأها بالحياة والحركة ، وصور الهيئات الجسدية والحالات النفسية ، واقرأ الأبيات وأمعن النظر فيها فإنك سترى صورة بقرة الوحش وما يعتلى خدودها من حمرة فى سواد ، وهى ترحل مذعورة من موضع إلى آخر لأنها تخشى على وليدها الذى تركته

يستتر فى مربضها ، وهذه البقرة مسلحة بقرنين هما فى الحدة كالسيف، ومزودة بأذنين حساستين ،وعينين حادتين .

وينتقل فيحدثنا عن كارثة هذه البقرة التى تركت ولدها ، وغفلت عنه بسبب بحثها عن الكلأ والماء ، فلقد وجدت هذا الولد أشلاء تحجل الطير حوله ،وقد عادت تجول مسرعة مذعورة تنظر يمنة ويسرة لكى تنجو من أولئك الذين يقصدونها فى كل مقعد ، ويطاردونها فى جميع الطرق والمسالك ، وما زالت فى ثوبها الأبيض تعدو ، وهى تذود الكلاب عنها بقرنها الأسود وتسعفها فى ذلك قوائمها الملتئمات التى هى كالخذاريف فى خفة الحركة والسرعة .

وجملة القول أننا مهما تحدثنا عن هذا الجانب عند زهير فلن نستطيع أن نوفيه حقه من بيان مقدرته التصويرية ، وإننا لنذهل إزاء هذه الروعة التصويرية وبخاصة حين نعرف أن تصوير الشاعر لا يقف عند فن معين ، ولكنه يتعدى ذلك إلى كل شيء يلتقطه خياله .

والحق يقتضينا أن نقول إن زهيرا من هذه الناحية قد استوفى فى شعره كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلى من براعة فى التصوير بفرعيه من تشبيه واستعارة ، وكثيرا ما كان يطرز هذه البراعة بضروب من الحكمة والدعوة إلى مكارم الأخلاق كما هو فى ذيل معلقته [1] ، فهو

---

(١) انظر الديوان : ٨٦-٨٩ .

شاعر ممتاز خبر صناعة الشعر ، وعرف أساليبها ، واستطاع أن يؤدى أجمل صورة لها فى لفظه وصيغه وقوالبه ، وقد لاحظنا أنه يعنى بتفصيل صوره ، ويظل يلح على الصورة التى يعرضها وكأنه يريد أن يستوفيها بجميع دقائقها استيفاء .

الإغراب في التصوير عند زهير :

كان زهير وكما هو واضح مما سبق يعني بصوره أيما عناية ، وكان يمنحها كل ما تحقق لديه من مهارة وصنعة ، لكنه وقد أكثر من الصور وتعمق فيها وألح عليها يستوفيها جميع دقائقها ، نجده يحلق في الأفق الأعلى للفن ، وهذا من شأنه يجعله لا يقف بصوره عند هذا الحد ، وإنما ينتقل بها إلى جانب آخر مهم وهو " الإغراب في التصوير " .

وكان يطلب في بعض صوره أن يقع على الغرائب والطرائف كي يستولى على أذهان الناس وعقولهم ولذلك نجده يتقن لون الاستعارة إتقانا لعل شاعرا جاهليا لم يبلغ مبلغه فيه ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن زهيرا كان يعجب إعجابا شديدا بما يتخذه في حرفته من أدوات فنية جديدة وهذا جانب ما يزال زهير يحاول أن يحدث به طرافة في شعره يطرف بها قارئه .

انظر إليه وهو يصف الظعائن وهن ينتقلن إلى وادي الرس ويصلن إليه بسهولة ، نجده يستعين بخياله ويأتي في ذلك بتشبيه نادر طريف فيجعل وصولهن إلى هذا الوادي أمرا سهلا وطبيعيا كوصول اليد إلى الفم ببساطة وسهولة دون أن تضل أو تتيه . فيقول (١)

بكرن بكورا واستحرن بسحرة ∴ فهن ووادي الرس كاليد للفم

---

(١) الديوان ص ٧٧ .

ويصف الحرب في معلقته ، فيقول (١) :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتـــم
وما هو عنها بالحديث المرجـم (٢)

متى تبعثوها تبعثوها ذميمـــة
وتضر إذا ضريتموهـا فتضـرم (٣)

فتعرككم عرك الرحى بثفالهـا
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئـم (٤)

فتنتج لكم غلمان أشـأم كلهـم
كأحمر عاد ثم ترضـع فتفطـم (٥)

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلهـا
قرى بالعراق من قفيز ودرهـم (٦)

---

(١) الديوان : ٨١-٨٣ .

(٢) الذوق : التجربة ، الحديث المرجم : الذى يرجم فيه بالظنون أى يحكم فيه بظنونها .

(٣) تضر : أى تشتد وتستعر نارها .

(٤) ثفال الرحى : جلدة تبسط تحتها ليقع عليها الطحين . كشافا : أى على التوالى فهى دائما تلقح وتحمل .

(٥) غلمان أشأم : أى غلمان شؤم . كأحمر عاد : أى كلهم في الشؤم كأحمر عاد ، وأحمر عاد هو عاقر الناقة .

(٦) تغلل : تعطى الغلة ، القفيز : مكيال .

فأنت ترى أن الصور تزدحم فى الأبيات وتتلاحق ، وفضلا عن ذلك فالشاعر يجنح فيها إلى الإغراب وكأنه وهو ينظم هذا الشعر لم يكد يلم بالمعنى حتى أخرجه فى صورة خيالية نادرة مبعدة فى الخيال فمعانيه لا يسوقها سوق الحس والمشاهدة فحسب ، ولكنه يتكئ فيها على خياله ، فيبرزها فى ألوان مجنحة من صنعة الخيال المتصرف فى ملكات النفس والشعور" (١) .

وهو يكره الحرب ، ويعرف الضار المتولدة من الحروب ، وينكر ما تجره على الناس من أوزار وأضرار ، ولذلك يصورها فى صور لا نقول إنها مخيفة وبشعة ، إنما نقول غير مألوفة ، فهى — أى الحرب — أسد ضار فى فتكها ، وهى إذا هيجوها هاجت ، بل هى نار مشتعلة إذا حملت على شدة الضرى التهبت نيرانها ، وهى كذلك رحى طاحنة تعرك كعرك الرحى الحب مع ثفاله ، وهى ناقة ولود دائما تلقح وتحمل ، ونتاجها من أردأ النتاج ، فهى تلد أبناء كل واحد منهم يضاهى فى الشؤم عاقر الناقة ، وإذا طالت الحرب فإن الضار المتولدة منها تربى على المنافع المتولدة من قرى بالعراق تغل الدراهم بالقفيزات ، إنها حقا لا تغل إلا الموت الزؤام .

والصورة فى غرابتها نجد الشاعر قد أعطاها نضرة وبهجة ، وبعث فيها الحياة والحركة ومن يقرأ الأبيات يرى صورة متحركة ، ويرى مناظر

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، الشنتمرى : ١/٢٧٣ .

وأشكالا من أشخاص ووجوه ، والشاعر بهذا يكون قد أعطى الصورة أوصافا تؤكد حقيقتها ، وتجعلنا كأننا نلمسها ونشاهدها .

ويستمر زهير في مطولته فتراه يخرج إلى تصوير آخر بديع لعله أكثر تعقيدا وصنعة من سابقه فهو يصور القبائل المتحاربة ، وكفهم عن القتال ، وإقلاعهم عن النزال مدة معلومة ، ثم معاودتهم الوقائع باستعمال السلاح ، وسفك الدماء ، يصور هذا بالإبل ترعى مدة معلومة في مراعى فقيرة ، حتى إذا اشتد الجوع والعطش ذهبت تطلب الماء فأوردت إلى مياه كثيرة تسيل بالرماح وبالدم .

يقول (١) :

رعوا ظمأهم حتى إذا تم أوردوا
غمارا تفرّى بالسلاح وبالدم (٢)
فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا
إلى كلأ مستوبل متوخم (٣)

---

(١) الديوان : ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) الظمأ : ما بين الوردين أو الشربتين . الغمار : جمع غمر وهو الماء الكثير . التفرى : التشقق .
(٣) قضوا : أنفذوا . أصدروا : ضد أوردوا . مستوبل متوخم : اللفظان بمعنى واحد . أى كلأ كريه تعافه الإبل .

ويقول في أحد مطالعه (١) :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُرّى أفراس الصبا ورواحله (٢)

والذى يلفتنا في البيت أن زهيرا عرف كيف يأتى فيه بالنادر الطريف من المعانى ، فهو يقول إن قلبه كف عن حب سلمى ، وأخذ يفكر ويبعد به خياله ،فتصور أن الأفراس والرواحل التى كان يركبها في الصبا وطلب اللهو هى التى كانت تصله بسلمى وتسوقه إليها ، أما وقد انتهى كل شئ من هذا فإنه لابد وأن ينصرف عن حب سلمى وألا يظل ينشغل بحبها .

فالصورة التى جاء بها الشاعر بعيدة ، لا يكاد يقع عليها إلا شخص له خيال متوثب ، شخص يستبطن الأشياء والمعانى ،ويتعمقها حتى يتخيلها كيفما شاء .

وأيا ماكان الأمر فإننا نلاحظ على زهير كثرة تشبيهاته واستعاراته ، ووقوعه على نوادرها وكان معنيا دائما بالتصوير ، وفى كل ذلك يحاول أن يحدث في صوره طرافة وأن يغرب فيها ، ولذلك يجد القارى

---

(١) الديوان : ٦٤ .

(٢) أقصر : كف ، الأفراس : جمع فرس ، والرواحل : الإبل .

فى شعره من حين إلى حين معانى غريبة غير مألوفة ، إنها نتيجة من نتائج صنعته ، وما فائدة هذه الصنعة إذا لم يأت فى شعره بمثل هذه الصور النادرة الطريفة ؟ ، ثم ماذا ننتظر من شاعر أصبح الشعر عنده حرفة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

وفى رأيى أن الذى ساعد زهيرا على الإتيان بالنادر الغريب أنه صاحب خيال متوثب ، وهذا من شأنه يجعله حين يفكر فى شىء يلمح فى خياله نظيره ، كما أنه يسعفه فى عقد ما لا يحصى من المشابهات بين الأشياء ، وهى مشابهات تجعل من يقرأها يحس وكأنه يدخل عالما خياليا حالما .

وهنا نقطة لابد وأن نشير إليها ، وهى أن ولع زهير بالإغراب فى التصوير لم يدفع به إلى الافتتان بالألفاظ الغريبة كما هو الحال عند كثير من شعراء الصنعة الذين تحس من قراءتك لبعض أشعارهم أنهم لم يكن لهم وجهة إلا أن يعبروا بالألفاظ الغريبة النادرة ، أما زهير فقد جاء أغلب شعره لا يخلو من سهولة فى اللفظ وجزالة وقوة غالبتين ، ولذلك قال ابن عباس : قال لى عمر : أنشدنى لأشعر شعرائكم . قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قلت : وكان كذلك ! ، قال : كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع وحشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه "(١) .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحى ، شرح محمود شاكر ٦٣/١ . مطبعة المدنى بالقاهرة .

ولعل زهيرا - وقد انصرف عن الافتتان بالألفاظ الغريبة - لم يكن ليطمح فى تحقيق تفوق لغوى ، فهو من جهة ليس عالما بالنحو ومشاكله كما هو الحال عند المتنبى (١) ، ومن جهة أخرى فإن هدفه من الاتجاه إلى الإغراب فى التصوير هو البحث عن طريف يمكن أن يضاف إلى فنه ، وهو لم يعدم ذلك فى المعانى حتى يلجأ إلى تحقيقه فى اللفظ .

استخدامه للألفاظ والعبارات المثيرة :

لاشك أن الإنسان يذهل إزاء هذه القدرة والمهارة الخاصة التى أوتيها زهير فى استخدام الألفاظ والعبارات المثيرة ، ومن يقرأ ألفاظه وعباراته يحس أنه يقرأ لشاعر يعرف لغته حرفته معرفة كجيدة ، شاعر يخضع لإرادته الفنية وما يطوى فى هذه الإرادة من تنسيق محكم للألفاظ والعبارات ، شاعر مغرم ببعث الحياة والحركة فى صوره ، كما يحس أنه يعيش فى جو من الصور المتحركة ، فما يزال يرى مناظر وأشكالا من شخوص ووجوه ، وكأنها تتحرك تحت ناظريه ، وهى فى الحقيقة وجوه مستعارة ، ولكن الشاعر قد أعطاها بمهارته أوضاعا تؤكد حقيقتها وتجعلنا كأننا نلمسها ونشاهدها .

ونحن لا نستبعد على زهير ذلك ، ولا ننكره عليه ، فقد سيطر على لغته ، وجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات ، وعنى عناية فائقة بتثقيف القول ، وإعادة النظر فى القصيدة قبل إنشادها .

---

(١) انظر : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د . شوقى ضيف : ٣٢٥ وما بعدها .

وقد دفع به افتنانه فى ضروب الشعر إلى اختيار اللفظ للمعنى الذى يناسبه ، وكأنه بصنيعه هذا كان يعرف فى دقة اختيار الكلمة التى تناسب وصفه معرفة الصانع الخبير الذى استوعب أسرار فنه ، واطلع على كثير من الأدوات التى يستخدمها فى صناعته .

أرأيت إلى هذه الصورة التى قالها فى وصف الصيد (١) :

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرة
متى نَرَهُ فإننا لا نخاتله (٢)

فبينا نبغى الصيد جاء غلامنا
يدب ويُخفى شخصه ويُضائله (٣)

فقال : شياه راتعات بقفرة
بمستأسد القُرْيان حُوٍّ مسائله (٤)

ثلاث كأقواس السراء ومِسْحل
قد اخضر من لسّ الغمير جحافله (٥)

---

(١) الديوان : ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) لا نخاتله : لا نمكر به ونكيد ، ولكننا نجاهره .

(٣) نبغى : نبتغى ، يدب : يمشى على هنينة ، يضائله : يصغره .

(٤) الشياه : الأتن ، المستأسد : ما طال من النبت وقوى ، القريان : مجارى المياه .

(٥) السراء : شجر تتخذ منه القسى ، المسحل : الحمار الوحشى ، اللس : الأخذ بمقدم الفم ، الغمير : النبت الأخضر ، الجحافل : جمع جحفلة وهى لدى الحافر كالشفة للإنسان .

فزهير يذكر أن غلامه الذى ذهب ليستطلع الحيوانات الوحشية فى الصحراء رجع يدب ويخفى شخصه ويضائله ، وهذه عبارة موجزة رسمت لنا رسماً دقيقاً حركة الغلام وسيره ومحاولته إخفاء نفسه كى لا تفزع الوحوش ، ثم إخبار الغلام لهم بأنه رأى ثلاث أتن وحشية وهى فى ضمورها كأنها أقواس السراء ومعها حمار ... اخضرت مشافره نتيجة لإقباله على النبات وتناوله له .

إنها صورة خيالية رائعة لا بد لها من خيال فنان حتى يعرضها على أنظارنا ، وإننا لنعجب من تلك الأوضاع التى طرز زهير بها وصفه هذا ، والتى استحضرت تلك الأحداث الماضية ومثلتها فى صورة يغرق فيها البصر .

وفى هذا النماء من أوعية التصوير تظهر قدرة زهير ، ويظهر كذلك تفوقه على شعراء عصره ، فلقد فصل صورته ، وبث فيها الحياة والحركة ، فإذا بنا ونحن نقرأ الأبيات ننظر ونشاهد ، وما أجمل أسلوبه الذى صور به هذه الصورة واستحضرها حتى لكأنها ماثلة للعيون . وليس من شك فى أن هذا تشخيص رائع ، وليس من شك فى أن زهيرا قد عمم التشخيص فى جميع صوره وأفكاره ، ولم يقف به عند جانب معين من شعره ، بل نشره فى جميع جوانبه .

وانظر إليه فى هذه الأبيات تراه يحسن استخدام ألفاظه وعباراته ، وقد برع فى اختيار الكلمة الدقيقة التى تلائم وصفه والتى تجعل المنظر بارزاً ناطقاً ، فهو يعبر بالأفعال المضارعة للدلالة على الأحوال المنظورة

ويأتى بها ليجعلنا نبصر حوادثه الماضية وكأنها تجرى تحت أعيننا ، كما يناسب بين معانى الأفعال وبين حكايتها للصورة فيقول : " نبغى الصيد " ، " يدب ويخفى " ، " يضائله " ، " أخضر " وهذا استحضار للأحداث وتمثل لها ، ووضعها فى وضع ملموس تحت أعيننا ، وانظر إلى البيت الثانى وإلى استخدام الشاعر فيه للفظة " يضائله " ولا شك أنها تعطى الصورة بعدا آخر جديدا ، إذ أنها تفيد معنى التغير والتحول والتدرج الذى يلازم الصور المتحركة .

ونحن لا ننكر على زهير هذا التصوير الدقيق عن طريق استخدام الألفاظ والعبارات ، إيمانا منا بأن الشاعر كلما دقت صنعته إلى جانب اتساع موهبته قدم تجربة فنية أكثر خلودا ونجاحا .

جوانب أخرى فى التصوير عند زهير : -

كان زهير يعنى عناية شديدة بتصويره ، وهو لم يقف بصوره عند هذا الحد الذى ذكرناه ، ولكنه كان يعنى بجوانب أخرى فى صناعته ، ولعل أهم هذه الجوانب ما كان يلاحظ عليه من إعطاء صوره ألوانا حسية ملموسة تجعلنا كأننا نرى الصورة رؤية حقيقية .

ولعل عنايته باستقصاء الصورة وتوسيعها هو السبب فى اهتمامه بألوان موصوفاته ، يضاف إلى ذلك أنه قد عرف بحبه للطبيعة ، وتأثره الشديد بها ، شأنه فى ذلك شأن كل الشعراء البدويين ، وهذا من شأنه يجعلنا نراه بحسه المرهف وبقدرته الفنية يستعين بها فى التعبير عن أفكاره .

ولعل زهيرا هو الشاعر الجاهلي الذى استطاع أن يلون موصوفاته بألوان مختلفة ، ونحن إذا جمعنا له طائفة من صوره خرجت لنا منها ألوان لا تتقيد بعدد ولا بهيئة ولا بشكل خاص . وهذا الجانب من التصوير هو ما يسمى " بالتدبيج " ، وقد اعتمد عليه زهير حتى يعطى لصوره ألوانا حسية ملموسة ، وإن قارئ شعره ليخيل إليه أن زهيرا قد استوعب جميع صور التدبيج فى شعره .

وارجع إلى البيت الأخير فى الصورة السابقة التى يصف فيها الصيد تجده يصور لك اللون الأخضر الذى بقى على فم الوحش وعلق به نظرا لكثرة ما أكل من النباتات ، يقول :

ثلاث كأقواس السراء ومسحل ∴ قد اخضر من لس الغمير جحافله

وفى الصورة السابقة والتى وصف فيها الظعائن ، نراه يلون الأنماط العتاق ، والكلة ذات الحواشى الحمراء التى وشت بها النساء هوادجهن ، فألوانها تشبه الدم فى شدة الحمرة ، كما شبه فتات العهن بحب الفنا فى لونه الأحمر الوردى .

أرأيت إلى هذه الصورة ؟ إن زهيرا يعتمد فى ضبطها على التفصيل فى التدبيج ، وهو كثيرا ما كان يلجأ إلى ذلك ، وأى طرافة وبراعة فى التلوين تبلغ ما يلغه زهير هنا ، إنها صنعة تضفى على الصورة جمالا محدودا ، فهى من ناحية تتمم الوصف ، ومن ناحية أخرى تنقل إلينا المنظر نقلا دقيقا ، يجعلنا نتفاعل به ونتأثر له ، وحسب زهير أنه لم يقلد فى ذلك أحدا ممن كانوا قبله ، ولو شئنا أن نضيف إلى

ذلك شيئا لقلنا إنه صاحب حظ موفور في هذا اللون الذى نما واتسع فيما بعد على يد مسلم بن الوليد وأبى تمام وابن الرومى .

وبعد فهذه صورة مختصرة عن المذهب الفنى فى شعر زهير ابن أبى سلمى ، وهى تبرز عنايته بالتصوير فى شعره عناية بالغة ، كأنه أصل مهم من أصول صناعته ، وهو جانب يكشف لنا عن حقيقة الشاعر، وحقيقة صناعته ، وما يتخذه فيها من طرق فنية فى الألفاظ والتعبير والتصوير .

ثالثا : امــــرؤ القيــــس

دراسة أدبية لمعلقة امرئ القيـــس

امرؤ القيس :

هو الملك الضليل امرؤ القيس بن حجر الكندى ، كنيته أبو وهب أو أبو الحارث (١) ، حامل لواء الشعر فى الجاهلية .

ولد فى بلاد نجد (٢) ، حيث كان والده حجر واليا من قبـــل أبيه على بنى أسد وغطفان ، وكان جده الحارث بن عمرو ملكا عظيمــا يمتد ملكه من بلاد نجد جنوبا حتى العراق والشام شمالا ، ويذكـــر أن والده كان حاكما ظالما ، فضاق به بنو أسد فوثبوا عليه فقتلــــوه ، وكان الشاعر فى رحلة قنص مع بعض رفاقه فى واد معشب بحضرمـــوت يقال له (دمون) فوصل إليه خبر مقتل والده ، فكان ذلك الحـادث حدا فاصلا بين مرحلتين فى حياته ، مرحلة اللهو والعبث ، ومرحلـــة الجد والتعب ، ذلك لأنه من وقت أن قتل والده هب يأخذ بالثـــأر له ، وكان ثأرا من نوع خاص ، إذ أقسم ألا يكتفى بأقل من قتل مائـــة رجل ، وجــز نواص مائة آخرين من بنى أسد .

---

(١) انظر ديوان امرئ القيس ، ص ٥ . دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

(٢) روى ابن قتيبه أن امرأ القيس من أهل نجد وأن الديار التى وصفها فى شعره كلها ديار بنى أسد (انظر الشعر والشعراء ٥٢/١ . دار الثقافة بيروت) .

كما أنه قد حدثت أحداث عظيمة في صباه زلزلت عظمة أسرته ، فقد نشبت الحروب الطاحنة بين جده الحارث بن عمرو والمنذر بن ماء السماء أمير الحيرة ، وقد انتهت تلك الحرب بقتل جده الحارث واستيلاء المنذر بن ماء السماء على الجزء الشمالي الشرقي من مملكة الحارث جد امرىء القيس .

وقد نشأ شاعرنا على ما تنشأ عليه أبناء الملوك في عهد الجاهلية ، فتعلم الفروسية ، وشب على الشجاعة والنجدة ، ونال حظه الأوفر من اللهو والمجون ، كما أنه قد تنقل بسبب من ذلك كثيرا ، وقد ساعد هذا التنقل على تكوين قوة الملاحظة ، وتوسيع أفق خياله ، بسبب تعدد المشاهد ، واختلاف مظاهر الطبيعة الساحرة .

شاعرية امرىء القيس :

امرؤ القيس شاعر مشهور ، تناقل الناس شعره في حياته وحفظوه ، وهو فحل من فحول شعراء الجاهلية ، ويعد من المقدمين بين ذوي الطبقة الأولى ، وقد أعجبت قريش بمعلقة امرىء القيس فعلقتها على الكعبة .

وفي شعر امرىء القيس رقة اللفظ ، وجودة السبك ، وبلاغة المعاني ، وقد سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته عليها الشعراء ، ولعل هذا هو السبب في تعلق الرواة والشعراء بشعره ، وحفظهم له ، وتقليدهم اياه .

ففي العصر الأموي كان الشاعر عمر بن أبي ربيعة يقلد أشعار امرئ القيس ، وهذا يؤكد أنه اطلع عليها وحفظها وتأثر بها ، كما وجدنا الشاعر ذا الرمة يروي شعر امرئ القيس ، وفي القرن الثاني الهجري اعتنى الأصمعي بشعر امرئ القيس فجمعه ، وحفظ شعر امرئ القيس في ديوان يجمعه منذ القرن الثاني ، وقد وصل إلينا هذا الشعر.

وقيل إن امرأ القيس لم يسبق الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء ، واتبعوه فيها ، لأنه أول من لطف المعاني ، واستوقف على الطلول ، وقرب مآخذ الكلام ، فقيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ، منها ذكر الطلول والالتفات إلى الأحباب ، والتفنن في الأوصاف ، وقد ترك امرؤ القيس مذهبا شعريا هو الوقوف على الأطلال ، والبكاء عليها ، سار عليه الشعراء من بعده " (١) .

وشعر امرئ القيس متأثر بحياته التي عاشها فمعظم شعره قاله في وقت شبابه ، عندما كان يلهو ويمرح ، وينتقل من غدير إلى آخر ، ويقضي وقته في الغزل ومحادثة النساء واستماع الغناء ، فكل تلك الحياة اللاهية صورها شعر الشاعر خير تصوير ، فهو شاب مترف يجمع بين الشباب والغنى والفراغ ، فجاء شعره يعبر عن حياته ، فلم يكن له من

---

(١) ديوان امرئ القيس : ص ٢٧ .

هم إلا وصف النساء وحديثه معهن ، أو وصف الصيد ، ولكن لاتخلو قصائده اللاهية من أبيات الشكوى والألم .

ومن موضوعاته الشعرية :

(١) الغزل العابث :

وغزل امرىء القيس قصص شعرى يصور أيامه مع النساء ، وأوقاته معهن ،ومن غزله الذى ورد فى المعلقة قوله (١) :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى
فيا عجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهداب الدمقس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات إنك مرحل
تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

---

(١) الديوان : ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) الوصـــف :

وقد برع امرؤ القيس في وصف :

١ ـ الليل وطوله .
٢ ـ رحلة الصيد .
٣ ـ الفـــرس .

ومن وصفه لطول الليل قوله من المعلقة (١) :

وليل كموج البحرِ أرخى سدولـــه
على بأنـــواع الهموم ليبتلـــي
فقلت له لما تمطى بصلبـــه
وأردف أعجازا وناء بكلكـــل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـي
بصبح وما الإصباح منك بأمثـــل
فيالك من ليل كأن نجومـــه
بأمراس كتان إلى صم جنـــدل

ففي هذه الأبيات يقول امرؤ القيس لقد أحاط بي الليل ، وأخذت الهموم تنتابني من كل جانب ،وقد خيل إلى أن الليل حيوان ضخـــم جثم على ، وأن نجومه ثابتة في مكانها لاتتحرك ،وكأنما ربطت بحبـــال قوية في جبل يذبل .

---

(١) الديوان ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) شكوى الزمان :

يقول يشتكي الزمان بعد مقتل والده ، وتحت عنوان " أبعد الحارث بن عمرو ؟ " (١) :

أرانا موضعين لأمر غيب
ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير ، وذبان ، ودود
وأجرأ من مجلحة الذئاب

وكل مكارم الأخلاق صارت
إليه همتي ، وبه اكتسابي

فبعض اللوم عاذلتي ، فإني
ستكفيني التجارب وانتسابي

إلى عرق الثرى وشجت عروقي
وهذا الموت يسلبني شبابي

ونفسي ، سوف يسلبها ، وجرمي
فيلحقني وشيكا بالتراب

ألم أنض المطي بكل خرق
أمق الطول ، لماع السراب

وأركب في اللهام المجر ، حتى
أنال مآكل القحم الرغاب

---

(١) الديوان ص ٧٢ ، ٧٣ .

وقد طوفت فى الآفاق حتى
رضيت من الغنيمة بالإياب
أبعد الحارث الملك بن عمرو
وبعد الخير حجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينا
ولم تغفل عن الصم الهضاب
وأعلم أننى عما قريب
سأنشب فى شبا ظفر وناب
كما لاقى أبى حجر وجدى
ولا أنسى قتيلا بالكلاب

من أبيات المعلقة (١) :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل (٢)
.....
وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل (٣)
وإن شفائى عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول
.....

---

(١) انظر الديوان ص ٢٩ وما بعدها .
(٢) اللوى : رمل يعوج ويلتوى . والدخول وحومل : موضعان .
(٣) المطى : المراكب .

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي
وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وإن تك قد ساءتك مني خليقة
فسلي ثيابي من ثيابك تنسل (١)
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتل (٢)

. . . .

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلي (٣)
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل (٤)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منك بأمثل (٥)

---

(١) التنسول : سقوط الريش والوبر والصوف والشعر.
(٢) المقتل : المتذلل غاية التذليل .
(٣) السدول : الستور.
(٤) تمطى : تمدد ، الأرداف : الأتباع ، الأعجاز : الأواخر.
(٥) الانجلاء : الانكشاف ، الأمثل : الأفضل .

فيـا لك من ليـل كأن نجومـــــه
بأمــراس كتان إلى صــم جنــدل (١)

. . . .

وقد أغتـدى والطير فى وكناتهـــا
بمنجـرد قيـد الأوابـد هيكـل (٢)

مكر مفر مقبل مدبر معـــــا
كجلمود صخر حطه السيل من عـل (٣)

كميت يزل اللبد عن حال متنـــه
كما زلت الصفواء بالمتنـــزل (٤)

على الذبل جياش كأن اهتزامـــه
إذا جاش فيه حميه غلى مرجـل (٥)

مسح إذا ما السابحات على الونـى
أثرن الغبار بالكديـد المركـل

---

(١) الأمراس : جمع مرس وهو الحبل ، والأصم : الصلب ، والجندل : الصخرة .
(٢) الوكنات : مواقع الطير ، المنجرد : الفرس القصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، الهيكل : الفرس الطويل الضخم .
(٣) الكر : العطف ، والجلمود : الصخر الأصم .
(٤) كميت : أحمر يميل إلى السواد ، اللبد : ما يوضع من قطع الصوف على ظهره ، الصفواء : الصخرة الملساء .
(٥) جياش : يزداد جريا ، اهتزامه : صوت اندفاعه ، حميـه : شدة جريه ، والمرجل : القدر .

يـزل الغلام الخف عن صهواتــه
ويلوى بأثواب العنيف المثقـل (١)

دريد كخذروف الوليد أمـره
تتابع كفيه بخيط موصـل (٢)

لـه أيطلا ظبى وساقا نعامـة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفـل (٣)

ضليع إذا استدبرته سد فرجـة
يضاف فويـق الأرض ليس بأعـزل (٤)

كأن على المتنين منه إذا انتحـى
مداك عروس أو صلاية حنظـل (٥)

---

(١) الخف : الخفيف الحاذق بالركوب ٠ الصهوة : موضع الفارس من ظهر الفرس ٠ العنيف المثقل : الذى لا يحسن الركوب ٠

(٢) درير : كثير الدر والانصباب فى العدو ، أى أنه سريع ٠ خذروف : لعبة للصبيان ٠

(٣) الأيطل : الخاصرة ٠ إرخاء : سرعة فى لين ، التقريب : دون العدو ٠ تتفل : ولد الثعلب ٠

(٤) الضليع : الشديد ٠ الأعزل : المائل الذنب ٠

(٥) الانتحاء : الاعتماد والقصد ٠ المداك : الحجر الذى يسحق به الطيب وغيره ، والصلاية : الحجر الأملس الذى يسحـق عليه شئ ٠

كأن دماء الهاديات بنحـــــــره
عصارة حناء بشيب مرجـــــل (١)

فعن لنا سرب كأن نعاجـــــة
عذارى دوار فى ملاء مذيـــل (٢)

فأدبرن كالجزع المفصل بينـــــه
بجيد معـــم فى العشيرة مخـــول (٣)

فألحقنا بالهاديات ودونـــــه
جواحرها فى صـــرة لــــم تزيـــل (٤)

فعادى عداء بـــين ثور ونعجـــة
دراكا ولم ينضج بماء فيغســـل (٥)

فظل طهاة اللحم من بين منضـــج
صفيف شواء أو قدير معجـــل (٦)

ورحنا يكاد الطرف يقصـــر دونـــه
متى ماترق العـــين فيه تسفـــل (٧)

---

(١) الهاديات : طلائع بقر الوحش . والترجيل : تسريح الشعر .

(٢) عن : ظهر وعرض . السرب : القطيع من الظباء أو النســـاء أو القطا ، أو المها ، أو البقر ، أو الخيل ، والجمع الأسراب .

(٣) أدبرن : انصرفن . الجزع : الخرز . الجيد : العنق .

(٤) جواحرها : المتخلفات منها . فى صرة : فى جماعة . تزيل : تفرق .

(٥) عادى : والى الجرى . دراكا : سريعا . ينضح : يغســل .

(٦) الصفيف : الصفوف على الحجارة لينضج . القدير : اللحـــم المطبوخ فى القدر .

(٧) تسفل : تنظر إلى أسفله .

فبـات عليـه سـرجه ولجامـــــــه
وبـــات بعينى قائما غير مرســــل

أصاح ترى برقا أريك وميضــــــــة
كلمع اليدين فى حبى مكلـــــل (١)
يضئ سناه أو مصابيح راهـــــب
أمال السليط بالذبال المفتـــل (٢)
قعدت له وصحبتى بين ضـــــارج
وبين العذيب بعدما متأمـــــل (٣)
على قطن بالشيم أيمن صوبـــــــه
وأيسره على الستار فيذبـــــل (٤)
فأضحى يسح الماء حول كتيفـــــة
يكب على الأذقان دوح الكنهبـــل (٥)
ومر على القنان من نفيانـــــــه
فأنزل منه العصم من كل منـــــزل (٦)
وتيماء لم يترك بها جذع نخلــــــة
ولا أطما إلا مشيدا بجنـــــدل (٧)

---

(١) اللمع : التحريك والتحرك . الحبى : السحاب المتراكم .
(٢) السناء : الرفعة . السليط : الزيت . الذبال : الفتيلة .
(٣) ضارج والعذيب : موضعان .
(٤) القطن : جبل . الصوب : المطر . الشيم : النظر إلى البرق مع ترقب المطر . (٥) الكب : القاء الشئ على وجهه . الكنهبل : ضرب من شجر البادية (٦) القنان : اسم جبل لبنى أسد . النفيان : ما يتطاير من قطر المطر . (٧) تيماء : قرية فى بلاد العرب . الأطم : القصر . الجندل : الصخر .

تقسيم النص إلى أفكار :

إذا نظرنا إلى الأبيات التي وردت في النص وجدناها تنقسم إلى أقسام متعددة وهي :

١ ــ الغزل الذي جعله الشاعر في مقدمة معلقته ٠

٢ ــ وصف الليل وطوله ٠

٣ ــ وصف رحلة الصيد ٠

٤ ــ وصف الحصان (وهو يدخل ضمنا في وصف الصيد) ٠

فالأفكار إذن ثلاثة :

(١) وصف الليل وطوله ٠ وهذا يبدأ من قوله : (وليل كموج البحر)

(٢) وصف الحصان ٠ ويبدأ من قوله : (وقد أغتدى والطير ٠٠٠)

(٣) وصف رحلة الصيد ٠ ويبدأ من قوله : (فعن لنا سرب ٠٠٠)

* * *

* فبعد المقدمة الغزلية نجد الشاعر ينتقل إلى وصف الليل المظلم الذي أرخى عليه الستور لدرجة حجبت الرؤية عنه ، ومن ثم أخذت الهموم تنتابه من كل جانب ، وقد دفعته كل تلك الظروف إلى أن يخاطب الليل مطالبه بالانكشاف ٠

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ولا نغفل ما ورد أثناء وصفه لليل بالطول من أوصاف أخرى معاونة ، مثل وصف نجوم الليل ، وتثبيتها فى أماكنها التى لا تبرحها ، وكأنها ربطت بحبال قوية فى جبل يذبل ...

* ثم يقول :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ...

وهذا يعنى أنه يعرف وقت الخروج للصيد ، فهو يباغت الطيور صباحا قبل أن تغادر أعشاشها . وكأن الحصان هو وسيلته المفضلة أثناء الصيد . وهنا ننتقل إلى وصف الحصان.

فهو معتاد على الكر والفر ، وهو كثير المراوغة للوحش ، وأنت إذا رأيته فى معركة ظننته حجرا يدحرجه السيل من أعلى إلى أسفل . وهذا الحصان أحمر يميل إلى السواد ، وهو مكتنز باللحم والشحم ، ويزداد نشاطا كلما ازداد جريه وعدوه ، حتى إنه ليخيل إليك أن الحصان وهو يجرى لكأنه يسبح فى الهواء لسهولة سيره . فإذا حاول ركوبه الغلام الخفيف زلق عن ظهره وإذا حاول ركوبه الثقيل لوى بثيابه فطرحه ، وإن الذى يمكنه ركوب ذلك الحصان هو الذى يلاطفه ويداريه ، فهو حصان سريع ، وفى جريه يشبه حركة يدى الصبى الذى يلعب بخذروفه .

وهنا نأتى إلى الصفات التى جلبها امرؤ القيس لفرسه وهى :

* خاصرته ضامرة تشبه خاصرة الظبى .

* ساقاه طويلتان وتشبهان ساقي النعامة .
* هو في عدوه أشبه بالذئب .
* وإن تراخى في عدوه يشبه الثعلب .
* ذنبه كثيف الشعر يسد ما بين فخذيه ، وهو خال من الاعوجاج .
* وأنت لو نظرت إلى ظهر الحصان لوجدته أملس وكأنه ذلك الحجر الذى يدق عليه طيب العروس أو حب الحنظل .
* وأنت أيضا لو نظرت إلى صدر ذلك الحصان وهو عائد من رحلة الصيد فإنك تشاهد الدم منبعثا في صدره ، فلكأن الدم في صدر الحصان حناء في شعر رجل قد أدركه الكبر .

* * *

هذه هي الأفكار التي جاء بها امرؤ القيس ، في معلقته ، ويكفيه فخرا أن يقول إن هذه الافكار قد استولت على الشعراء من بعده ، وأحدثت في عدد كبير من الشعراء أثرا كبيرا .. فالنابغة الذبياني وهو من هو ، شاعر فحل من فحول شعراء الجاهلية ، نجده يتتبع طريقة امرئ القيس في وصف الليل ، وهذا هو شاعر الجاهلية زهير بن أبي سلمى ، وهو شاعر الصنعة ، وشاعر الحوليات ، نجده يتأثر بامرئ القيس في وصف الفرس ، الأمر الذى يؤكد أن أفكار امرئ القيس لها أثر كبير في شعراء عصره .

* * *

تعقيب :

١ — تتميز ألفاظ امرئ القيس بالخشونة ، والفخامة ، فهو يميل إلى ذلك أكثر من ميله إلى الرقة والعذوبة ، فألفاظه تحتاج منا في عصرنا هذا إلى أن نبحث عنها في المعاجم ، مثل (تمطى — كلكل — وكناتها — اهتزامه — خذروف — أيطل — حنظل — .... وما إلى ذلك) ونحن بدورنا إذا نظرنا إلى تقدم زمن امرئ القيس لعذرناه في ذلك .. هذا فضلا عن طبيعة الموضوعات ، والحياة الجاهلية التي عاشها الشاعر .

وكل ما يحمد للشاعر هو أنه أحسن استعمال هذه الألفاظ وقد أخفى ذلك الجفاء الذي يمكن أن يتوقعه القارئ أو السامع من هذه الألفاظ ، فالشاعر قد مزجها بألفاظ سهلة ورقيقة ، فكون لنا تراكيب وستينة متقنة الصنع ، وانظر إلى قوله : (وأردف أعجازا وناء بكلكل) .

٢ — خلت تراكيب الشاعر من التعقيد أو الضعف الذي ينشأ غالبا من حشو البيت بتراكيب تتممه ، فالشاعر لا يأتي بالتراكيب إلا لحاجة وضرورة ، لذلك خرجت ألفاظه تبدو عليها الأصالة .

٣ — أما من حيث المعاني فإنها قد خلت من المبالغات الممقوتة وقد يلجأ الشاعر إلى تقريب المعاني باستخدام التشبيه أو الصور الخيالية ، مثل :

— الليل في صورة حيوان وهمي .

ـ الحصان قطعة حجر يدحرجها السيل من عل ٠

٤ ـ أسلوب امرئ القيس يشتمل على المبالغة المقبولة مثـــل قوله (قيد الأوابد) وهو دون شك أسلوب رائد في الشعـــر الجاهلي ، وقد اقتفى سبيله عدد كبير من الشعراء فــي عصره وبعد عصره ، ولولا ما كان من تمكن الشاعر من فنـــه لما اقتفاه الشعراء ولما قلدوه في أسلوبه ٠

* * *

وعلى كل فقصيدة امرئ القيس اللامية قد اشتملت على عدة أغراض كالوقوف بالأطلال ، وبكاء الديار، ثم التغزل بمحبوباته ، وذكـــر أخباره معهن ، ويلي ذلك وصف الليل وطوله ، وما قاساه الشاعـــر وكابده من هموم فيه ، ثم الانتقال إلى وصف الجواد الذي يخـــرج به مبكرا للصيد :

وقد اغتدى والطير في وكناتهـا
بمنجرد قيـد الأوابـد هيكـل

والحقيقـة أن الشاعر قد أسهب في وصف فرسه ، وأخذ يعدد مزاياه وخصاله الكريمة ، وقد استغرق منه هذا الوصف عشرة أبيات ، انتقل بعدها إلى وصف الصيد بهذا الحصان ، وهو وصف موجـــز لواحدة من رحلات صيده ، يصف فيها قطيعا من بقر الوحش اعـترض طريقه ، كما يصف إناث هذا القطيع في مشيتهن الهادئة المطمئنـة ، فكأنهن عذراوات حسناوات يطفن بصنـم ٠

ومن الملاحظ أن امرأ القيس قد عنى أشد العناية فى رحلته هذه بفرسه ، وكأنه عرض له هذا القطيع فى طريقه ليثبت له من صفات السرعة ما أراده ، حتى إنه كان يلحقه بأوائل هذا القطيع ، ويجول هنا وهناك فيصيد له الثور والنعجة دون أن تظهر عليه علامات التعب والإجهاد ، وكأن امرأ القيس يؤكد من خلال ذكره للصيد ما يريد إثباته لجواده من صفات ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعلنا نراه يذكر أخبار الصيد حتى يتركه سريعا إلى وصف الجواد مرة أخرى :

كأن دماء الهاديات بنحره
عصارة حناء بشيب مرجل
وأنت إذا استدبرته سد فرجه
بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

فامرؤ القيس من الشعراء المعجبين بجيادهم ، فالجواد له منزلة خاصة فى نفسه ، يحوطه باهتمام شديد ، ولا يكاد يترك الحديث عنه. يؤيد ذلك أن معظم مشاهد الصيد التى جاءت فى أبياته إنما جاءت تابعة لوصف الجواد ، ولم يكن وصف الصيد مقصودا لذاته ، فهو حين أراد أن يصف فرسه بالسرعة والقدرة ، وجد أن ذلك لا يتحقق إلا بإلحاقه بسرب الوحش وظفره به قبل أن يناله الجهد ، ويتصبب منه العرق ، فكأن وصف الصيد وسيلة لغرض أساسى هو وصف الجواد ، بدليل أن امرأ القيس سرعان ما يتابع الحديث عن الجواد ، ولو أن وصف الصيد كان غرضا مقصودا لذاته لجاد به الشاعر بعد التحدث عن الجواد وبعد أن يستوفى وصفه .

والحقيقة أن أكثر ما عرض له امرؤ القيس فى وصف الطبيعة الحية إنما كان الفرس والناقة ثم حيوانات الصحراء ، لكنه أبدع أيما إبداع فى وصف الجواد ، لدرجة تجعلنا نقول إنه نال النصيب الأعظم من شعره ، وجاءت لنا لوحاته ناطقة حية وصف خيل الصيد بصفة خاصة ووصف ما يحدث عادة فى رحلة الصيد .

ولقد عده ابن رشيق على رأس نعات الخيل فقال :

" أما نعات الخيل فامرؤ القيس وأبو دؤاد ، وطفيل الغنوى ، والنابغة الجعدى " (١) .

والحقيقة أن قول ابن رشيق فى غاية الإصابة ، فما من شاعر وصف الجواد وبلغ فى وصفه ما بلغه امرؤ القيس ، فقد وصفه فى كل أحواله ، وعنى بوصف خيل الصيد أكثر من عنايته بوصف خيل الحرب ، وكان صادقا كل الصدق وهو يتحدث عن رحلات صيده ، وكان وصفه لهذه الرحلات وصفا حقيقيا وعن ممارسة واقعية لعملية الصيد ، وقد هيأت له حياته كما رأينا أن يكون حديثه عن الصيد حديثا صادقا ، والواقع أنه كان يتخذ من ذلك كله وسيلة للفخر بفتوته وفروسيته .

---

(١) العمدة : ٢/٢٩٦ .

ولو تصفحنا ديوان امرئ القيس لنتعرف على مكانة هذا الفن من نفسه لوجدنا أن أول ما يطالعنا فى ديوانه إنما هو أبياته اللامية المعروفة بالمعلقة المذكورة .

ثم تلقانا القصيدة الثانية ومطلعها (١) :

خليلى مرا بى على أم جندب
نقضى لبانات الفؤاد المعذب

وعدد أبياتها جاوز الخمسين بيتا ، وقد ضمنها الشاعر كعادة الشعراء عدة أغراض انتقل بعدها إلى وصف جواده الذى يخرج به للصيد فى الصباح ، وامرؤ القيس يضمن قصيدته هذه لوحة من لوحات وصفه للفرس، فيتناول كل عضو من أعضاء جسمه بالوصف الدقيق ، ولا يكتفى بالوصف الذهنى ، بل يقابله بكل ما هو محسوس للعين ، فتأتى صورته مجسمة ملموسة .

وتطالعنا قصيدة أخرى مطلعها (٢) :

الخير ما طلعت شمس وما غربت
مطلب بنواصى الخيل معصوب

---

(١) الديوان : ٦٤ ، دار بيروت .
(٢) الديوان : ٧٥ ، دار بيروت .

وقد بدأها بالحديث عن فرسه الجرداء التى يشهد بها الغارات
وراح يتناولها بالوصف المسهب ، حتى وصل إلى إثبات صفة سرعتهـا ،
وكأنه أراد أن يقرنها بما يحقق لها هذه الصفة من عالم الواقـــع
المحسوس فلم يجد أسرع من العقاب ، ولم يكتف بهذا بل هيـــأ
لهذه العقاب ما يزيد من سرعتها ويضاعف من نشاطها فهى فى النهاية
صفات لجواده ...

وتطالعنا قصيدة تائية مطلعها (١) :

غشيت ديار الحى بالبكـــرات

فعارمـــة فبرقـــــة العـــيرات

وهى تشتمل على مشهد صيد جديد لم يشر إليه الشاعر فى قصائده
السابقة ، ذلك أنه يذكر الصيد من خلال تشبيه ناقته بحمار وحشى :

كأنى ورد فـــى والقراب ونمرقـــى

على ظهـــير عير وارد الخـــبرات

وتطالعنا قصيدة أخرى مطلعها (٢) :

رب رام من بنـــى ثعـــل

متلج كفيـــه فـــى قتــــره

---

(١) الديوان ص ٨١ ، دار بيروت .
(٢) الديوان ص ١٠٢ ، دار بيروت.

وتطالعنا قصيدة أخرى يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد ومطلعها (١) :

أحار بن عمرو كأني خمر
ويعدو على المرء ما يأتمر

وقد بدأ الشاعر هذه القصيدة بالفخر، ثم التشبيب ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن خروجه في الصباح الباكر ومعه قانصان وهى رحلة قصيرة جاء بها الشاعر في عدة أبيات .

وتطالعنا قصيدة أخرى مطلعها (٢) :

أماوى ! هل لى عندكم من معرس
أم الصرم تختارين بالوصل نيأس

وقد ذكر فيها امرؤ القيس الصيد وتناوله بصورة جديدة ، وقد اختار هذه المرة الثور بدلا من الحمار، واستتبع ذلك ذكر حال الثور ومعاناته الليل الطويل في مكمنه .

ثم تطالعنا قصيدة أخرى مطلعها (٣) :

أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوص
فتقصر عنها خطوة أو تبوص

---

(١) الديوان ، ص ١٠٩ ، دار بيروت .
(٢) الديوان ١١٥ ، دار بيروت.
(٣) الديوان ص ١٢٢ ، دار بيروت .

وقد ضمنها الشاعر أغراضا عدة ، فقد تحدث عن سلمى ورحيلها ثم تحدث عن ناقته التى كانت تسليه فى نسيان همومه ، وأخذ يعدد خصالها ، ووصفها بحيوان من حيوانات الصحراء آنست من نفسه ألفة له ومقدرة على سرد أوصافه وخصاله ، ذلك هو الحمار الوحشى الذى راح يصفه لنا وصفا مسهبا .

وتطالعنا قصيدة أخرى مطلعها (١) :

أعنى على برق أراه وميض
يضىء حبيا فى شماريخ بيض

وقد أتى فى القصيدة بمشهد من مشاهد الصيد ، وقد ذكره الشاعر كالعادة بعد وصف جواده الذى ذعر به سربا .

ثم تطالعنا قصيدة أخرى مطلعها (٢) :

ألا عم صباحا أيها الربع وانطق
وحدث حديث الركب إن شئت واصدق

وقد بدأها الشاعر كالعادة بمناجاة الطلل ، وأخذ يعزى نفسه لرحيل أحبابه ، وانتقل بعد ذلك للحديث عن رحيله على ظهر ناقته وراح يصف لنا هذه الناقة حيث شبهها بظليم ، ثم وصف رحلته

---

(١) الديوان ص ١٢٦ دار بيروت .

(٢) الديوان ص ١٣٣ دار بيروت .

والاقاة فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن رحلة أخرى من رحلات صيده .

ثم تلقانا قصيدة أخرى مطلعها (١) :

وهى ولا تختلف عن معلقته كثيرا ، فقد اشتملت على عدة أغراض أيضا ، ذكر فيها الأطلال والديار والحديث عن النساء ، وافتخر فيها بشجاعته ، ثم انتقل بعد هذا كله إلى وصف جواده .

والحقيقة أن هذا القدر الكبير من الشعر والذى خصه الشاعر امرؤ القيس لرحلات صيده ، إن دل على شئ فإنما يدل على أن شاعرنا كان يتمتع بملذات الحياة ، يؤكد ذلك ما روى أنه قد التف حوله صعاليك القوم ،وقد عاش معهم ما شاء أن يعيش بين الصيد والطرد والغزل والشراب ، وقد استمر على هذه الحياة اللاهية فإذا صادف غديرا أو روضة ، أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكل معه أصحابه ،وشربوا الخمر وأنشدهم الشعر ، وغنته وإياهم القيان .

وامرؤ القيس صادق كل الصدق فى وصف خيل الصيد ، كما أنه كان صادقا حين تحدث عن رحلات صيده ، والحق أن حياته قد هيأت له من الأسباب ما يجعل حديثه عن الصيد حديثا صادقا ، هذا إذا أضفنا أن الشاعر كان يأخذ من هذا كله وسيلة للفخر بنفسه وشجاعته وقومه .

---

(١) الديوان ص ١٣٩ ، دار بيروت .

إن امرأ القيس فى وصفه لرحلة الصيد كان يتعمد أن يأتــــى بجديد فى الصــور ،حتى لا يجعلنا نتوهم أن مشاهده فى الصيـــد متشابهة مما يبعث فى نفوسنا الملل ، وقد رأيناه فى كل صوره يهتــم بإضافة الجديد مستعينا على ذلك كله بخياله الوثاب وقريحته التى لا تنضب ، الأمر الذى يجعلنا نقول إن صوره رغم تشابهها جاءت مختلفة متنوعـــة .

مقومات الشعر الجاهلي وخصائصه

عندما نستعرض الشعر الجاهلي نجد كثيرا من خصائصه في الأسلوب والمعنى قد تشترك في بعضها عصور أدبية أخرى تالية له ، وهذا لا يمنع من وجود مقومات وملامح عامة وخصائص يتميز بها الشعر الجاهلي عنه في العصور الأدبية المختلفة .

أولا : الخصائص اللفظية والأسلوبية :

حينما نستعرض الشعر الجاهلي نجد أن أهم ما يلاحظ عليه أنه فخم الألفاظ ، وأن هذه الألفاظ الفخمة كانت تتلاءم مع الحياة الجاهلية الخشنة ومع الطبيعة الجاهلية الجافة التي عاشها الشعراء الجاهليون ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الشعراء قد اتجهوا في عباراتهم إلى الألفاظ الغريبة ، وهذه الألفاظ مع غرابتها ليست عيبا في الشعر الجاهلي ، ذلك لأننا نحسها صادقة غير متكلفة ، ومعبرة عن تجربة الشاعر وواقعه ، ثم إن هذه الألفاظ مهما غربت كانت قريبة من روح العصر ، وبينها وبين المجتمع الجاهلي آنذاك اتصال وثيق ، وكانت هذه الألفاظ صورة للذوق الجاهلي وللمجتمع الجاهلي على أن هذا لا يعني أن ألفاظ الشعر الجاهلي تسير كلها على وتيرة واحدة كلا فألفاظ هذا الشعر لينة في مواقف الغزل ، وهي شديدة وقوية في مواقف الحروب والتهديد والحماسة والوعيد والفخر ، فكانت استجابة طبيعية دون انتقاء وفحص ، فمعظم شعر النابغة الذبياني وعنترة وعمرو بن كلثوم من ذلك النوع الذي يتسم بقوة في الألفاظ ، ومن ألفاظ

زهير بن أبي سلمى وامرئ القيس مما يتصف بالعذوبة وبالخفة على الأسماع .

يقول زهير (١) :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

ويقول امرؤ القيس (٢) :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقد تكون في ألفاظ الشعر الجاهلي ألفاظ أخرى غير عربية كتلك الألفاظ الفارسية التي أتى بها الأعشى ، ومن ذلك قوله (٣) :

لنا جُلَّسان عندها وبَنَفْسَج
وَسِيْسَنْبر والمَرْزَجوش مُنَمْنَما
وآسٌ وَخِيْرِيٌّ ومَروٌ وَسَوْسَنٌ
إذا كان هِنْزَمْنٌ ورحتُ مُخَشَّما

---

(١) شرح القصائد التسع : ٣٢٨ .

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص ١٤٩ .

(٣) ديوان الأعشى ص ١٨٦ تحقيق محمد حسين . كل الأسماء في البيتين أسماء رياحين ، والهنزمن : اسم عيد ، والمخشم : الشديد السكر .

ويلاحظ على الشعر الجاهلى أيضا أنه متين التراكيب ، فالتراكيب تامة ، والعبارات تؤدى معانيها دون خلل أو اضطراب ، وهذه الطريقة فى الشعر الجاهلى تعد نموذجا راقيا فى لغتنا العربية ، وقد استطاع الشعراء الجاهليون أن يبهروا أدباء ونقاد العصور التالية بما حققوه من صقل وتجويد وصنعة فى أشعارهم .

يقول الدكتور شوقى ضيف عن صناعة الشعر الجاهلى : " من يرجع إلى صناعة الشعر العربى فى أقدم نماذجه يرى صعوبة هذه الصناعة ، وأنها ليست عملا غفلا ، بل هى عمل مرسوم بتقاليد ومصطلحات كثيرة ، وتلك آثار الشعر الجاهلى تتوفر فيها قيود ومراسيم متنوعة ، ولعل ذلك ما جعل " جويدى " يقول : إن قصائد القرن السادس الميلادى الجديرة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة ، فإن ما فيها من كثرة القواعد والأصول فى لغتها ونحوها وتراكيبها وأوزانها يجعل الباحث يؤمن بأنه لم تستو له تلك الصورة الجاهلية إلا بعد جهود عنيفة بذلها الشعراء فى صناعتها " (١) .

وقد حرص جل الشعراء الجاهليين على صقل شعرهم وإجادته وتنقيحه ، وكانت مطولات الشاعر منهم لم تكن لتصنع دفعة واحدة ، ولكنها كانت تصنع على دفعات ، وكان شعراء الحوليات أحرص الشعراء على تجويد قصائدهم ، وكانوا لا يخرجونها للناس إلا بعد أن تستوى فى بناء فنى متكامل ، وأغلب الظن أن الشاعر منهم كان إذا صنع قطعة عرضها

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٤ ، دار المعارف ، ط ١٠ .

على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدل في بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتا " . (١)

وليس يخفى أن الشعر الجاهلي كان متشابها كلية في أسلوبه ، فكل قصيدة جاهلية كانت تبدأ بالوقوف على الأطلال وذكر الأحبة ، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف الطرق التي يقطعها ، وهو لا يغفل ما في هذه الطرق من وحوش ، ثم يصف الناقة التي يمتطيها في هذه الطرق ، ثم بعد ذلك يصل إلى غرضه الأساس الذي نظمت من أجله القصيدة سواء أكان هذا الغرض مدحا أو غيره .

هذه هي طريقة الشاعر الجاهلي في معظم قصائده ، وهذا هو منهجه الغالب عليه ، وقد لا يشذ عن هذا الأسلوب وتلك الطريقة إلا القليل النادر من الشعر ، فمعظم تراكيبهم محكمة البناء ، متينة النسج ، متراصة الألفاظ ، وملامح أسلوبهم تنطق بأنه أسلوب قوي متين تعتريه الغرابة أحيانا ، وهو مع ذلك يسير مع طبيعة الشاعر وسجيته ، ولئن كان من بين الشعراء الجاهليين من يهتم بالصنعة وبإعادة النظر في شعره مرة تلو الأخرى فإننا ينبغي أن نقول إن الغالبية من الشعراء الجاهليين كانوا يسقولون الشعر ويذيعونه بين الناس دون أن يعيدوا فيه النظر ، فيأتي أسلوب كل منهم يعبر عن طبيعة الشاعر الذي يأبى التكلف ، وأسلوب هؤلاء أسلوب عذب محبب إلى النفس ، وهو واضح ليس فيه

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د . شوقي ضيف ص٢٢٧ .

خفاء أو تعقيب . هذا إلى اتسامه بالإيجاز وعدم الإطناب، فكل شعراء الجاهلية كانوا مغرمين بالإيجاز فى القول ، لأنهم يعتمدون على الحفظ فى كل أشعارهم ، وهناك شئ آخر ينبغى أن ننبه إليه وهو أن الشعر إذا كان قليلا أمكن للشاعر أن يسيطر عليه ، وأن يحكم أسلوبه ويجوده .

وهناك أمر آخر ينبغى أن نلفت النظر إليه وهو أن الشعر الجاهلى شعر غنائى وهو شعر يعتمد على الإيقاع إلى حد كبير، فمن الأشعار الجاهلية ما يسير سيرا هادئا ومنه ما يسير سيرا صاخبا ، وليس يخفى أن النوع الأول من الشعر يكون إيقاعه عذبا ، وأن النوع الثانى يكون قوى الإيقاع صاخبا ، ولعل هذا هو السبب فى أن الشعر الجاهلى يصلح كله للغناء ، ولا شك فقد تغنى الجاهليون بشعر بعض شعرائهم ، وكان الشاعر الأعشى يعرف بصناجة العرب ، لأنه كان يقول شعره على آلة موسيقية قديمة كانت تعرف بالصنج .

ثانيا : الخصائص المعنوية :

من المؤكد أن معانى الشعر الجاهلى هى الخواطر التى تجول فى ذهن الشاعر، ونحن لا يمكننا إدراك أو معرفة هذه الخواطر إلا بعد أن يلبسها الشاعر القوالب الشعرية ، ومن ثم فالمعنى فى الشعر لا يتأتى إلا بوجود الألفاظ ، وهو كالروح والألفاظ كالجسد الذى تحل فيه الروح .

ومعانى الشعر الجاهلى معان واضحة ومبسطة، وهى مع بساطتها إلا أنها كثيرة ومتنوعة ، فالشاعر الجاهلى يعبر عن الجود والكرم الذى شهدته البيئة الجاهلية ، كما يعبر عن الشجاعة التى كانت سمة من سمات الجاهليين ، ويعبر كذلك عن طبيعة العصر وظروف البيئة وما أسفرت عنه هذه الظروف من رهبة ،وخوف وقلق ، وآلام وغير ذلك ،ولذلك يمكننا أن نقول إن شعر الجاهليين يعد وثيقة دقيقة لمن يريد التعرف على الحياة الجاهلية وعلى البيئة الجاهلية بصحرائها ورمالها ووديانها ومراعيها وحيواناتها وعاداتها وتقاليدها وغير ذلك ..

ولعل أول ما يلاحظ على الشاعر الجاهلى أنه لم يكن مفتعل الشعور ، بل كان صادقا فيه ، وكان يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء ، وكان يحاول نقل أحاسيسه ومشاعره إلى لوحاته الفنية نقلا أمينا لا زيف فيه ، ولعل السبب فى صدق الشاعر الجاهلى فى نقل أحاسيسه أن هذا الشاعر كان يقول الشعر وهو راغب فيه وفى قوله ، ولذلك نحن نحس بالصدق فى معظم أبيات وقصائد الجاهليين ، ونحس كذلك أن معنى الأبيات يعبر عن رغبة الشاعر فى نظم الشعر ، ومعنى ذلك أن شعر الجاهليين كان يقال على البديهة ، أو كان يقال استجابة للرغبة التى يحس بها الشاعر.

ومما توصف به معانى الشعر الجاهلى أنها معان واضحة تخلو من التكلف ومن المبالغة ، وهى وإن أصابتها المبالغة أحيانا إلا أنها مبالغة لا تصل إلى الدرجة التى وصلت فى العصر العباسى ، فهى مبالغة لا تعرف الغلو ولا المغالاة، ولا تخرج الشعر عن حدود

الاعتدال ..

ومن المبالغات الجاهلية قول امرىء القيس (١) :

من القاصرات الطرف لو دبَّ مُحْــــول
من الذَّرِّ فوق الإتْب منها لأثَّـــرا

ولعل أوضح ما توصف به معانى الشعر الجاهلى أنها معـــان حسية ، تلتصق بالأشياء المحسوسة ،وتبعد عن الجدل العقلـــى الذى ظهر فى العصر العباسى والذى كان عند أبى تمام والمتنبـــى وأبى العلاء المعرى ، وكانت هذه المعانى خالية من الخيال لدرجة تجعلها على صورة حقائق تسرد .

يقول الدكتور شوقى ضيف : " وهذه النزعة فى الشاعر الجاهلـى جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غـير حب ،فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعمــاق الأشياء الحسية ، وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته فهـــو ينتزعها من عالمه المادى ... " (٢)

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ٩١ . الأتب : قميص غير مخيط .
(٢) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٢٠ .

وهذه الصفة هى التى جعلت معانى الشعراء الجاهليين غير متسعة ولا متشعبة وهى التى جعلت معانيهم غير مرتبة ، وخرج كل بيت يستقل بمعناه عن الآخر ، لدرجة أنك إذا أردت أن تغير أوضاع الأبيات فى القصيدة وجدت المعنى العام لايتأثر فى قليل أو كثير ، لأن البيت من القصيدة لا يؤدى المعنى إلى ما بعده من الأبيات إلا فى القليل النادر ، وهذا هو ما يعرف باستقلال البيت فى القصيدة . وهو السمة الغالبة على كل الشعر الجاهلى ، اللهم إلا إذا كانت القصيدة على هيئة قصة شعرية ، فإن أبياتها فى هذه الحالة تكون متسلسلة ، وكل بيت فيها يؤدى المعنى للبيت الذى يليه ، وذلك كما فى قصيدة الشنفرى التائية .

ومما يتصل بمعانى الشعر الجاهلى أن نقول إن أى شاعر جاهلى إذا صور الطبيعة من حوله ، أو إذا تحدث عن أحاسيسه خرجت معانيه متداولة وكأنها محاكاة وتقليد لمعانى غيره من الشعراء ، ونحن إذا قرأنا أشعارا جاهلية كثيرة وجدنا معانى شعر الفخر واحدة ، وكذلك معانى المدح ، وكذا بقية أغراض الشعر وفنونه ، وكأن الشعراء يدورون حول معنى واحد محدد ، أو لكأنهم اصطلحوا على معان بعينها لا يمكن تجاوزها أو الانحراف عنها فما يقوله هذا يقوله غيره ، فكل المعانى متشابهة فى الفخر والمدح والرثاء وغير ذلك .

وثمة ملاحظة أخرى وهى أن هؤلاء الشعراء الجاهليين وإن التصقت معانيهم بالمحسوس من الأشياء لم يكونوا ليعرضوا علينا هذه المعانى جامدة تفتقد الحيوية والحركة ، وتشيع الملل فى النفوس ، فهم مثلا إذا

وصفوا نجد وصفهم يتسم بالحيوية والحركة ، وكل وصفهم للبيئة ولما فيها يفيض بالحيوية وبالحركة الواسعة ، والحركة تعد أساسا من أساسيات هذا الوصف ، وكثير من أوصاف الشعراء خرجت تسجل الحركة الدائبة في البيئة تسجيلا بديعا .

ومع ذلك كله جاء عند الجاهليين من المعاني ما يتصف بأنها وضيعة ، ومن ذلك قول امرئ القيس (١) :

لنا غَنَمٌ نسوقها غِزار ∴ كأن قرونَ جِلَّتِها العِصي

فتملأ بيتنا أَقِطاً وسَمْنا ∴ وحسبك من غِنًى شِبعٌ وريٌّ

هذه هي الملامح العامة والصفات المميزة لأسلوب الشعر الجاهلي ومعانيه ، وهي كما ترى تختلف عن أساليب ومعاني الشعر في أي عصر من العصور الأدبية المختلفة ، وقد اعتمد عليها الشاعر كي يؤثر في نفوس مستمعيه ويخلب ألبابهم ، وهذا هو الذي حدا به لأن يعتمد في تصويره على الاستعارات الطريفة والتشبيهات الرائعة وعلى ألوان من المحسنات البديعية .

---

(١) ديوان امرئ القيس ٢١٨ .

النثر الجاهلي

النثر الجاهلي (١) هو كلام لا يرتبط بوزن ولا قافية ، وهو كلام أدبي يختلف عن الكلام العادي الذي يتكلم به الناس في شئونهم العادية ، لأن ألفاظه قد اختيرت ، وتراكيبه قد انتقيت ، وقد أحسنت صياغة عباراته بحيث يؤثر في المستمع ، ويخلب لبه عن طريق جودة صنعته .

ويقتصر النثر الجاهلي على فنين وهما :
أ — الخطب والوصايا .
ب — الأمثال والحكم .

أما الكتابة الفنية فكانت قليلة جدا ، بل إن شئت فقل إنها كانت معدومة ، وذلك لأن الكتابة الفنية تعتمد على شيوع القراءة والكتابة ، كما تعتمد على الثقافة والتعليم ، والعرب الجاهليون كانوا في مجموعهم أميين لا يتقن الكتابة والقراءة منهم إلا القليل .

١ — الخطابة :

والخطابة كلام متين الأسلوب ، جيد المعاني ، شديد التأثير ،

---

(١) انظر النثر الفني في القرن الرابع ، الدكتور زكي مبارك (الجزء الأول) ص ٣٧ وما بعدها ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

يخاطب به جمهور من الناس بهدف إقناعهم بفكرة معينة أو استمالتهم إلى رأى معين ، أو هدايتهم إلى طريق يبعدهم عن الانحراف فى ضلالة ويمنعهم من الانخراط فى ضلال .

وقد شاع هذا اللون من النثر بين الناس فى العصر الجاهلى ، لأنهم يحتاجون إليه فى حياتهم العامة ، وأكثر ما كان يقال هذا اللون فى أماكن اجتماع العرب مثل الأسواق ، أو كما فى اجتماعهم لحرب من الحروب ، إذ لا شك أنهم كانوا فى حاجة إلى حث المقاتلين على القتال ودفعهم إليه دفعا فى حالة الحرب .

ولعل دواعى الخطابة فى العصر الجاهلى هى على رأس الأسباب التى عملت على ازدهار الخطابة وعلى أن تتناول أغراضا كثيرة مختلفة ، فالخطبة فى العصر الجاهلى لها أدوار كثيرة وفعالة ، فهم يستخدمونها فى منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كما أنهم يستخدمونها فى الدعوة إلى السلم عندما تمل الحروب وتطول ويستخدمونها كذلك فى تهنئة الملوك ، وفى التعزية ، وفى النصح والإرشاد ، كما يستخدمونها فى تهذيب الناشئة ، لأنها تشتمل على المثل السائر والحكمة الصائبة .

ولم يصل إلينا من خطب الجاهليين إلا النادر القليل ، ولعل ذلك راجع إلى عدم عناية الجاهليين بالخطابة قدر عنايتهم بالشعر ، هذا هو السبب الذى جعل الدكتور شوقى ضيف يذهب إلى أن أكثر

ما ورد من نصوص الخطابة الجاهلية منحول [١].

وأيا ما كان الأمر فإن ما وصل إلى أيدينا من هذا اللون يدل على أن الخطبة عند الجاهليين كانت طويلة وقصيرة ، وأنهم كانوا يفضلون منها تلك التي تجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، والخطيب الجاهلي وإن لجأ إلى الخيال إنما كان ذلك كوسيلة لاستمالة المستمعين أو تخويفهم ، وهذا السبب نفسه هو الذي جعلهم يكونون خطبهم من جمل قصيرة مسجوعة متوازنة ، كما في خطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ ، أو كما في خطبة عبد المطلب بن هشام أمام سيف بن ذي يزن وغير ذلك .

ومن خطباء الجاهلية هاشم بن عبد مناف وابنه عبد المطلب ، وزهير بن جناب ، وقيس بن خارجة بن سنان ، وأكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة ، وهانئ بن مسعود الشيباني ، وضمرة بن ضمرة ، ولبيد بن ربيعة العامري ، وعمرو بن كلثوم التغلبي (وقد اشتهر هذان بالشعر أكثر من الخطابة) وحاجب بن زرارة ، والحارث بن عباد البكري ، وعمرو بن الشريد السلمي ، وخالد بن جعفر بن كلاب ، وعلقمة بن علاثة العامري ، وقيس بن مسعود الشيباني ، وعامر بن الطفيل العامري ، وعمرو بن معدي كرب ، والحارث بن ظالم المري [٢].

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ٤١٠ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه : ١١/٢ شرح أحمد أمين ورفاقه ، لجنة التأليف والترجمة ١٣٨٩هـ .

وقد نال الخطباء في الجاهلية منزلة لم ينلها الشعراء ، ذلك لأن الخطيب من الخطباء كان لا يقول خطبته إلا في الذود عن القبيلة وفي الدفاع عنها وفي تبيان حقوقها ، ويندر أن يتكسب الخطيب بخطبته كما كان يفعل الشعراء .

ومن عادة خطباء الجاهلية أنهم كانوا يخطبون وهم وقوف ، أو كانوا يلقونها وهم على الرواحل ، إذا خطب أحدهم واقفا كان يختار مرتفعا من الأرض ، وأن يضع العمامة على رأسه ، ويتكئ على العصا ، أو يمسك بالسيف في يده .

نماذج من الخطابة الجاهلية :

أ ـ خطبة لعبد المطلب بن هشام أمام سيف بن ذي يزن (١) :

" أيها الملك : إن الله تعالى أحلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته ، ونبل أصله وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب وربيعها الذي إليه يلجأ العباد ،

---

(١) انظرها في المصدر السابق : ٢/٢٤ .

سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك
من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه ، نحن أيها الملك
أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أنهجك
لكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة ،لا وفد المرزئة " (١)

ب — خطبة لقس بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ : (٢)

" أيها الناس اسمعوا وعوا ، إنه من عاش مات ومن مات فات ،
وكل ما هو آت آت ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم
تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ،
إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ما بال الناس يذهبون
فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ .. ثم أنشأ يقول:

---

(١) الأرومة : الأصل ، يخمل : أى يهمل ويضيع ، فدحنا : نزل بنا .

(٢) انظرها فى الأوائل للعسكرى : ١٠٧/١ تحقيق وليد قصاب ومحمد المصرى . طبعة دار العلوم بالرياض .

وقس بن ساعدة بن عدى من قبيلة إياد ، كان أسقف نجران ، كان زاهدا فى الدنيا وبخاصة بعد أن مات أخوان له ودفنهما بيده ، وكان قس يحضر عكاظ ويسير فى أهل الموسم يزهدهم وينذرهم ، ويقال إنه كان يتردد على بلاد الروم ، وقد توفى قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بحوالى عشر سنوات .

في الذاهبين الأولـ .. ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا .. للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها .. يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلي .. ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالـ ــة حيث صار القوم صائر

جو النص :

حكى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى قس بن ساعدة وهو يخطب في سوق عكاظ، وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يعجب بخطبته، ويبدو أن قس بن ساعدة كان ينكر المنكر الذي شاع في الجاهلية والغفلات التي كانت مسيطرة على الناس فتلهيهم عن التفكير في الموت والبعث والجزاء، يؤكد ذلك أن الخطيب قد ذكر أهل الموسم بدلائل قدرة الله ليؤمنوا به، كما ذكرهم بالموت الذي هو غاية كل حي، وكيف أنه طوى القرون الأول، ولم يفت الخطيب أن يذكر بمصير الأجيال الماضية كيف وردت منهل الموت، ومن ثم فلابد وأن يرده هو والناس جميعا .

جـ — خطبة أكثم بن صيفي أمام كسرى (١) :

" إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء

(١) انظرها في العقد الفريد : ٢/١١٠ وأكثم بن صيفي سيد مبين =

أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطئ ، آفة الرأس الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرئ ، المرء يعجز لا المحالة ، أفضل الأولاد البررة خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شر سماعه ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفر ومن تراخى تألف ... » (١)

= سادات تميم كان يقيم بالحجاز ، ويقصد إليه الرجال يلتمسون عنده الحكمة والرأى السديد ، وكان أكثم خطيبا مبدعا ، وحكيما تتدفق الحكمة على لسانه .

(١) مهواة : مهلكة يهوى فيها الإنسان ، اللجاجة : التمادى فى الخصومة والكلام ، المركب الوطئ : هو اللين . المحالة : هى الحيلة .

جو النص :

يروى أن النعمان بن المنذر قصد إلى بلاط كسرى فوجد عنده وفودا تفتخر، وكان كل وفد يفتخر بمآثر أمته وعراقتها ، وكانت الوفود من الروم والهند والصين ، وحين افتخر النعمان بالعرب أنكر كسرى ذلك ، ورأى أن العرب قوم لا مجد لهم ، وحينئذ اقترح عليه النعمان أن يستدعى وفدا من العرب ليسمع منهم كسرى بنفسه وقد وافقه كسرى على ذلك ، فقدم وفد من العرب وعلى رأسه أكثم ابن صيفى ،وأخذ يلقى خطبته المذكورة بين يدى كسرى ، فكان أن أعجب كسرى بها إعجابا شديدا ، وزاد إعجابه من بلاغة العرب حين استمع إلى خطب أخرى قالها رجال آخرون من زعماء القبائل، الأمر الذى أدى إلى عودة الوفد العربى من بلاط كسرى معززا مكرما .

وحول هذه الخطب يمكن أن نقول إن من أهم خصائصها أنها تدور حول النصح والوعظ ، فهى مجموعة حكم وأمثال متناثرة ، كما تقوم فى معظمها على السجع ، وقد تتضمن بعض الخطب أبياتا شعرية ، كما هو الحال فى خطبة قس الإيادى ، وغالبا ما تعتمد على الجمل القصيرة ، وعلى سوق الأمثال والحكم ، وعلى ضروب متعددة من المحسنات البديعية ، وعلى الألفاظ القوية وغير ذلك مما هو من خصائص النثر الجاهلى بصفة عامة ، كما نلاحظ أن الروابط المعنوية بين الأفكار وبخاصة فى خطبة أكثم مفككة ، فالخطبة لا تطرق موضوعا واحدا ، وإنما تشتمل على عدة أفكار غير مترابطة ، ولعل سبب

هذا أن العرب لم يكونوا متعلمين ، ومن ثم فهم لا يستطيعون بسط موضوع واحد بتقسيم منطقى مترابط .

د — خطبة المأمور الحارثى فى نادى قومه (١) :

قعد المأمور الحارثى فى نادى قومه .. فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم أفكر طويلا (٢) .. ثم قال :

أرعونى أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد (٣) ..

---

(١) ورد فى جمهرة خطب العرب (١ : ٣٩) : أنه المأمون الحارثى .. بالنون لا بالراء ، والصحيح أنه المأمور كما فى الأمالى (١ : ٢٦٧) والبيان والتبيين (١ : ٣٦٢) بتحقيق هارون ، والاشتقاق ص ٢٦٩ والنقائض (١٤٩ و ٦٠٠) والأغانى (١٥ : ٧٠) .

(٢) النادى — كالندى .. بوزن فعيل .. والمنتدى : مجتمع القوم، ومكان جلوسهم معا ، وأفكر — كفكر .. مشددة الكاف — : أجال النظر .

(٣) أرعونى أسماعكم .. أى : اجعلوها لى مرعى أسوم فيه كلامى حيث شئت ، والمراد : أصغوا إلى فى انتباه ، وأصغوا إلى قلوبكم .. أى : أميلوها نحوى .. كى تعى نصائحى ومواعظ .

طمح بالأهواء الأشر ، وران على القلوب الكدر ، وطخطخ الجهل النظر (١) .. إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة وسماء مرفوعة (٢) .. وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب (٣) .. وقمر تطلعه النحور ، وتمحقه أدبار الشهور (٤) .. وعاجز

---

(١) طمح : ذهب فى نشوز وجموح ، والأهواء : الرغائب والشهوات والأشر : المرح الشديد ، وران : تراكم وغطى ، والكدر : المعانى الكدرة السيئة ، وطخطخ : سوى .. أو : ضم .

(٢) موضوعة : مخلوقة وموجدة ، والمراد مذللة ، معبدة مسهلة ومرفوعة : معلاة ، أو مشرفة ، وتغرب : تختفى .

(٣) تسرى : تسير ليلا ، وتعزب : تغيب وتذهب ، والفعل من بابى ضرب ودخل .

(٤) النحور : جمع نحر ، وهو أول الشهر ، وتمحقه : تمحوه وتزيل أضواءه والأدبار : جمع دبر .. يعنى أواخر الشهور .

مثر ، وحُوَّل مكد (١) ، ويَفَنٌ قد غَبَرَ (٢) .. وراحلون لا يؤوبون ،
وموقوفون لا يفترون (٣) ، ومطر يرسَل بقدر ، فيحيى البشـــر (٤)
ويورق الشجر ، ويُطلع التمر وينبت الزهر ، .. وماء يتفجر من الصخر الأيَر (٥)
فيصدع المَدَرَ ، عن أفنان الخُضَر (٦) .. فيحيى الأنام ، ويشبع السوام

---

(١) رجل حول — بوزن سكَر ، وصرد ، وبومة ، وهمزة — : شديــــد الاحتيال .. أى : داهية ، ومكد : قليل المال عكس " مثر "
وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا
هلكن إذن من جهلهن البهائـــم
ويقول أبو العلاء المعرى :
كم عالم عالم أعيت مذاهبه .. وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا : الذى ترك الأوهام حائرة
وصير العالم النحرير زنديقـــــا

(٢) مختضر : أى ميت : وهو فى اليفاع وسن الفتاء ، واليفن : الشيخ الكبير ، وغبر : بقى ، وهو من الأضداد كما سبق .

(٣) يثوبون : يرجعون ويعودون ، وموقوفون : مقامون دائمـــا ويفترون : يسكنون أو يضعفــون .

(٤) بقدر : أى : بتقدير وحساب ، ويحيى البشر ، : بإسقائهم ، ورى زراعاتهم ، وشرب حيواناتهم ، والمراد : يديم حياتهـــم ويحفظها .

(٥) الأيَر — بفتح الياء وتشديد الراء — : الشديد الصلب ، والواحدة يراء ، واليرر — بالتحريك — : الشدة .

(٦) الصدع : الشق فى شئ صلب ، والمدر : قطع الطين اليابس ، والأفنان : — كالفنون — : الأنواع من الشئ .. مفردها : فن والخضر : جمع خضرة — بضم فسكون — وهى لون معروف ، ولكن المراد : أنواع النبات الأخضر .

وينمى الأنعام (١) ان فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبـــر المقدر ، البارىء المصور (٢) ..

يأيها العقول النافرة ، والقلوب الثائرة (٣) .. أنى تؤفكون؟ وعن أى سبيل تعمهون ؟ ، وفى أى حيرة تهيمون ؟ ، وإلى أى غاية توفضون (٤) ؟ !!

---

(١) الأنام ، والآنام ، والأنيم — كأمير — : الخلق ، أو الجن والإنس أو جميع ما على وجه الأرض ، والسوام — كالسائمة — : الإبـــل الراعية ، وينمى : يزيد ويسمن ، والأنعام : جمع نعم — بالتحريك أو بسكون العين — وهى الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل ، وجمع الجمع : أناعيم .

(٢) البارىء : الخالق ، والمصور : مكون الشكل على هيئة خاصة .

(٣) النافرة : المتفرقة المتباعدة ، والثائرة : الهائجة .

(٤) تؤفكون عن كذا : أى : تصرفون وتبعدون ، والعمه : التردى فى الضلال ، والتحير فى الطريق ونحوه ، والهيام — بضم الهاء — : حالة تشبه الجنون تعترى العاشقين ، فلا يعون ما يفعلون أو ما يقولون ، وتوفضون : تسرعون .

لو كُشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون(١)
.. لصرح الشك عن اليقين (٢)، وأفاق من نشوة الجهالـــــة
.. من استولت عليه الضلالة (٣).

---

(١) الغشاوة _ مثلثة الغين _ كالغشوة .. بالتثليث أيضا ..
وهى حالة تغطى البصر فلا يرى صاحبه شيئا .

(٢) صرح : كشف وأظهر ، والشك : الارتياب ، واليقـــين :
الحق الواقع .

(٣) النشوة : حالة سرور وفرح تعترى الإنسان عند حدوث ما يسره ،
والضلالة : التيه والحيرة .

٢ ـ الأمثال والحكم :

المثل : قول موجز بليغ ، سائر بين الناس ، وهو ينقل عن صاحبه بحالته لتشبه به أحوال منظورة مشاهدة ، فالذى يجمع بين الموقف السالف والموقف القائم هو المماثلة بينهما ، ومن ثم صار لكل مثل أصل ومضرب .

والحكمة : هى قول موجز بليغ يحمل فى طياته معنى ساميا وتجربة إنسانية عميقة .

والمثل نوع من أنواع الحكمة ، ذلك لأنه يعتمد على اللفظ القليل الذى يشتمل على المعنى الكثير ، والهدف من المثل هو التعليم والتذكير ، والأمثال تصور تجارب أمتنا العربية فى حياتها كلها سياسية كانت أم اجتماعية ، أم ثقافية ، أم دينية ، وإن شئت فقل إن أمثالنا العربية حصيلة تاريخنا العربى الطويل بجميع فروعه ، وتشعباته .

وتحمل الأمثال الجاهلية الحوادث التاريخية التى صدرت فى العصر الجاهلى ، كما أنها تكشف عن العديد من جوانب الحياة الجاهلية ، ولعل هذا هو السبب فى أن معظم الأمثال العربية جاءت متشابهة . ومع أن كثيرا من الأمثال الجاهلية لم يعرف قائلها وأخذت تسير بين الناس ويتناقلونها دون أن يسندوها إلى قائل ، لدرجة أن بعض هذه الأمثال صارت تصلح لكل وقت .. مع ذلك

فإننا يمكننا أن نقول إن هذه القصص قد تختلف باختلاف الأشخاص الذين يروونها إذا ما عرفنا القائل ، فالأمثال التى ترد فى خطبة لأحد الخطباء الجاهليين نعرف أنها جاهلية عن طريق الخطبة التى ضمت المثل ، وهكذا الأمثال التى يضمها شعر شاعر جاهلى ..

وبعض الأمثال الجاهلية قد ضاعت مع ما ضاع من تراثنا العربى، ومع ذلك فنحن نجد الأمثال مبثوثة فى كتب الأدب والدواوين الشعرية ، وفى كتب التاريخ ، وارجع إن شئت إلى كتب الأغانى للأصفهانى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه والأمالى للقالى ، فإنك ستجد هذه الكتب تشتمل على كثير من الأمثال ، بل إن هناك كتبا قد ألفت فى الأمثال ، ومن أهم هذه الكتب مجمع الأمثال للميدانى وجمهرة الأمثال للعسكرى .

والأمثال تكون فى الشعر كما تكون فى النثر ، وإن كانت فى النثر أكبر منها فى الشعر ، وقد نقلت الأمثال العربية عن أدباء العرب شعراء كانوا أم كتابا مثل أكثم بن صيفى ، وضمرة بن ضمرة النهشلى ، ولبيد بن ربيعة ، وحاجب بن زرارة ، وعامر بن الظرب العدوانى ، وزهير بن أبى سلمى ، وطرفة والمتلمس وغيرهم .

ومن أمثال العرب فى الجاهلية : آخر الدواء الكى ، جزاء سنمار ، بعض الشر أهون من بعض ، كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ، مقتل الرجل بين فكيه ، رب عجلة تهب ريثا ، رب رمية من غير رام ، رب

أكلة تمنع أكلات ، رب قول أنفذ من صول ، الحر حر وإن مسه الضر ، استنوق الجمل ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، يخبط خبط عشواء ، المنية ولا الدنية ، استراح من لا عقل له ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، في الجريرة تشترك العشيرة ، ليس بيسير تقويم العسير ، وقد يأتيك بالأخبار من لم تزود ، أجع كلبك يتبعك ، إن البلاء موكل بالمنطق ، إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ، أسخى من حاتم ، أدهى من قيس بن زهير ، أعز من كليب وائل ، مواعيد عرقوب ، صحيفة المتلمس ، أشجع من ربيعة بن مكدم ، ويلاحظ أن الأمثال الستة الأخيرة خاصة بالنسب لأشخاص .

وينبغي أن نقول إن العرب لم يحرصوا على الحكم قدر حرصهم على الأمثال ، وهي — أي الحكم — تلتقي مع الأمثال في أن كلا منهما قول مختصر سائر بين الناس ، ويهدف إلى التنبيه والتذكير والحث على الخير والنهي عن الشر .

من الأمثـــال

١ ـ أن ترد الماء بماء : أكيـــس

ويروى :

أن ترد الماء بماء أوفـــق ∴ لا ذنب لى قد قلت للقوم استقـــوا

والباء فى قوله : " بماء " بمعنى " مع " ..

والمعنى : ورودك الماء ـ ومعك ماء ـ أحكم عقلا ، وأوفق تدبيرا وأكثر حيطة .. وفى مثله يقول بعضهم : " عَشِّ إبلك ولا تَغْتر " (١).

وأَفْعَلُ هنا ـ بمعنى " أكيس " ـ على غير بابه .. والمـــراد منه المصدر .. على حد قولهم : " أشأم كل امرئ بين فكيـــه " .. أى : شـــؤم كل امرئ إلخ ، وقولهم : " تسمع بالمُعَيْـــدِىّ خير من أن تراه " .. أى : سماعك .. إلخ .

والمثل يضرب فى وجوب الأخذ بالحيطة والحذر واستعمـــال العقل فى التدبير .

---

(١) نص المثل فى الميدانى (٢/١٦) برقم ٢٤٣٢ : " عش ولاتغتر ".

٢ — إياك أعنى واسمعى يا جاره

يروى أن قائله هو : سهل بن مالك الفزارى .

خرج يوما قاصدا إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة — عاصمة دولة المناذرة تحت نفوذ الأكاسرة — فمر بأحد أحياء طيئ .. وسأل عن رأس القوم .. فأخبر بأنه : حارثة بن لأم .. فلما توجه إلى بيته لم يجده .. ولكن أخته — التى كانت موجودة — رحبت به قائلة : انزل فى الرحب والسعة .. فنزل حيث أكرمته ولاطفته ، ثم خرجت من خبائها فرأى جمالا يفتن أهل الدهر ، وكمالا يسبى رجال العصر .. وأصابت سهامها قلبه ، وغزت مفاتنها لبه ، وتبل حبها فؤاده .. الذى أحس بالوجيب ،وشعر بأنه سقط فى قليب .

ثم جلس يفكر .. كيف يعبر؟ وكيف يخبرها بما أحس ، أويحدثها عما لمس ، ولم يجد سبيلا إلى ذلك ، ولا قدرة على ماهنالك .. فجلس فى الفناء الذى به الخباء .. ثم صب فى أذنيها هذه الأبيات :

يا أخت أهل البدو والحاضره
ماذا ترين فى فتى فزاره ؟
أصبح يهوى حرة معطاره
إياك أعنى واسمعى يا جاره

فلما استقرت الكلمات فى ذهنها .. عرفت أنه عناها .. فقالت بصوت مسموع :

" ما هذا يقول ذى عقل أريب ، ولا رأى مصيب ، ولا أنف نجيب، فأقم ما أقمت مكرما ، ثم ارتحل متى شئت مسلما " .

ويروى أنها ردت عليه بالأبيات الاتية :

إنى أقول يا فتـــى فـــزارهْ
لاأبتغى الزوج ولا الدعـــارهْ
ولا فـراق أهل هذه الحـــارهْ
فارحل إلى أهلك باستخـــارهْ

فاستحيا الفتى .. وقال : ما أردت منكرا .. واسوأتاه !!

قالت : صدقت .. وظهر عليها الحياء من تسرعها .

ثم ارتحل سهل إلى النعمان .. فنعمه وكرمه .. فلما رجـــع نزل على أخيها ، فلما رأته سحرها جماله ، وبهرتها خلاله ، وشغفها من فورها حبا ، فطلبت منه أن يكون لها خطيبا ، فتقدم إلى أخيها يطلب يدها ، فتم ما أرادا ، ثم تزوجها وعاد بها إلى قومه .

ويضرب هذا المثل .. لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا غير مدلولـــه ومعناه .

* * *

٣ — إن غدا لناظره قريب

يروى أن قائله هو : قراد بن أجدع .. أحد جلساء النعمان ابن المنذر على الشراب .. في قصة طريفة خلاصتها :

أن النعمان خرج يوما للصيد ، وطارد عيرا وحشيا ، وهو يركب فرسه " اليحموم " فانفرد عن رفقته ، وسقطت الأمطار بشدة ، فلجأ إلى خباء فيه رجل طائي ، اسمه حنظلة ، ومعه امرأته .. فأكرماه وأحسنا ضيافته ، وذبحا له شاتهما ، وأطعماه وسقياه .. دون أن يعرفاه .. فلما أصبح عرفه النعمان بنفسه ، ورغب إليه أن يطلب متمناه منه .. فقال حنظلة : أفعل إن شاء الله .

وبعد زمن أصابت الطائي فاقة ، فذكرته امرأته بوعد النعمان فتوجه إلى الحيرة وذهب إلى الملك .. وكان ذلك في يوم بؤسه (١) فلما نظر إليه النعمان عرفه ، وساءه موقفه ، فعرض عليه أن يطلب حاجته من الدنيا قبل أن يقتله .. لأنه مقتول لا محالة .. فطلب من النعمان أجلا يؤدي فيه بعض مهامه ، ويوصي بأولاده ، فوافق النعمان .. على أن يكفل الطائي شخص معروف لدى الملك .. فنظر

---

(١) كان للنعمان بن المنذر عادة سيئة .. هي أنه جعل حياته يومين .. يوم بؤس يقتل فيه أول من يقابله ، ويوم نعيم يعطي فيه أول من يقابله .. وكان من حظ الطائي أن لقيه يوم البؤس .

الطائى فى وجوه الجالسين ، وشخص بصره إلى " شريك بن عمـــرو " ، وهو واقف إلى جانب النعمان فى بِزَّةٍ فَخَّارَة (١) .. فتوجـــه إليه قائلا :

يا شريكا يا ابن عمـــرو
هل من الموت محالـــة ؟
يا أخا كل مضــاف
يا أخا من لا أخـا لـه (٢)
يا أخا النعمان فُكَّ ال
يوم ضيفا قد أتـى لـه
طالما عالـج كـرب ال
موت لا ينعـم بالـه

فأبى شريك ورفض .

فوثب رجل من بنى كلب .. اسمه : قراد بن أجدع .. فأعلـن أنه كافله وضامنه مدة غيابه .. فإن لم يحضر أخذ به ، وقتل بدله .

---

(١) أى : فى ثياب تغر الناظر إليه .. بعظيم مكانته وقــوة شخصيته .

(٢) المضاف : اللاجئ .

فرحل الرجل إلى موطنه .. بعد أن منحه النعمان عاما يقضى فيه أموره ، ثم يعود .. ثم مرت الأيام ، وتوالت الليالى ، حتى لم يبق سوى يوم واحد .. فقال النعمان لقراد : ما أراك[1] إلا هالكا غدا .. فقال قراد :

فإن يك صدر هذا اليـوم ولى
فإن غـدا لناظـره قريـب

فلما أصبح النعمان .. أُعِدّت العدة ليوم بؤسه ، وأحضر قراد ، وأمر بقتله ، فمنعه مستشاروه .. حتى يمر اليوم كله ..

فلما دخلت الشمس فى دائرة الفناء ، وقاربت أن تودع الأفق ، وهيئ قراد للقتل .. حضرت امرأته مصطرخة ، وشق صوتها أجواز الفضاء مولولة .. ثم قالت :

أيا عين بكى لى قراد بن أجدعـا
رهينا لقتل لا رهينا مودعـا
أتته المنايا بغتة دون قومـه
فأمسى رهينا حاضر البيت أضرعا[2]

فبينا هم كذلك ، إذ رأوا شخصا من بعيد ، فاستمهلوا النعمان حتى يتضح الشبح القادم ، فإذا هو رجل طيء المطلوب .. فلما رآه

(١) بفتح الهمزة بمعنى : ما أعلمك ، وبضمها .. بمعنى : ما أظنك .
(٢) الأضرع : الذليل .

النعمان شق عليه الأمر — وكان يريد قتل قراد ، فداء للطائى الذى أحسن إليه يوما — ثم نادى الرجل وسأله : ما الذى حملك على الرجوع ، وقد نجوت من الموت ؟ ، قال : الوفاء .. أيها الملك .. قال : وما دعاك إليه ؟ قال : دينى .. قال : وما دينك ؟ قال : النصرانية .. قال : فاعرضها علىّ .. فلما عرضها تنصر النعمان وسائر أهل " الحيرة " جميعا — وكانوا قبل ذلك على دين العرب — .

ومنذ ذلك اليوم أقلع النعمان عن عادته السيئة ، وتاب عن القتل وسفك الدماء ، وجعل أيامه كلها أيام نعيم لا بؤس فيه .. ثم عفا عن قراد .. والطائى .. وقال : والله ما أدرى أيهما أكرم وأوفى ؟ .. أهذا الذى نجا من الموت ثم عاد إليه ؟ أو هذا الذى ضمنه وحنا عليه ؟ .. والله .. لا أكون الأم الثلاثة .. فأنشأ الطائى يقول :

ما كنت أُخلف ظنه بعد الذى
أسدى إلىّ من الفعَال الخالى (١)

ولقد دعتنى للخلاف ضلالتى
فأبيت غير تمجدى وفعالى

إنى امرؤ منى الوفاء سجية
وجزاء كل مكارم بذّال

---

(١) الفعال : — بفتح الفاء — : العمل الطيب .

وقال الطائى .. يمدح قرادا . أيضا :

ألا إنما يسمو إلى المجـد والعـلا
مخاريـقُ أمثالُ القُراد بن أجدعا[1]

مخاريق أمثال القـراد وأهلـه
فإنهم الأخيار من رهط تبعـا[2]

ويضرب هذا المثل فى الحالات التى يطلب فيها التأنى فى الأمور ، وعدم العجلة فى التصرفات ، حتى لا يندم الإنسان .. ولات ساعة مندم .

* * *

---

(١) المخاريق : جمع مخراق .. وهو الرجل الحسن الجسم .. طال أو لم يطل .

(٢) هو تبع بن حسان ملك اليمن ، ورأس دولة التبابعة ، قبل الإسلام .

٤ ــ أبخل من مادر

قيل : هو رجل من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ، واسمه مخارق ، وقد بلغ من بخله أنه سقى إبلا له من حوضه فبقى بعض الماء أسفل الحوض فخشى أن يستقى به أو يشرب منه أحد .. فَسَلَحَ فيه ، ومدر بعذرته (١) على جدرانه أى : طلاها بها .. ولذلك سمى : مادرا.

وقد كانت هذه السَّلْحَةُ عارا ، وشنارا على بنى هلال ،عيرهم بها أعداؤهم وسجلها خصومهم من الشعراء فى ديوان الحياة .

ومن ذلك قول أحد الشعراء :

لقد جللتَ خزيا هلالُ بنُ عامر
بنى عامر طرا بسلحة مادر
فأف لكم .. لا تذكروا الفخر بعدها
بنى عامر أنتم شرار المعاشر

وقد كان لبنى فزارة منقصة عيرهم بها أعداؤهم ، وشنع بها عليهم شانئوهم . وسببها : أن ثلاثة أصدقاء .. أحدهم فزارى ، والثانى ثعلبى ، والثالث كلابى .. خرجوا معا للصيد ، فصادوا حمارا وحشيا ثم ذبحوه .. وسار الفزارى يقضى بعض حاجاته ، وترك زميليه يطبخان

---

(١) العذرة : ــ بفتح فكسر ــ : ما ينزل من الدبر ،مقابل البول .

اللحم ، فطبخاه شواء وأكلا ما شاءا ، ثم خبآ لزميلهما الفـــزارى جزدان (١) الحمار، فلما عاد وطلب طعامه قدماه إليه فأخـــذ يلوكه ولا يسيغه ، فسأل : أكل شواء العير جوفان .. أى : قضيب؟؟ فضحكا منه ، وفهم الحقيقة .. فرفع سيفه فى وجهيهما ، وقال : لتأكلانه أو لأقتلنكما .. ثم قال لأحدهما .. وكان اسمه مرقمة : كُلْ منه ، فأبى .. فضرب رأسه .. فقال الآخر : طاح مرقمه .. فقال الفـــزارى : وأنت إن لم تـــلقمه (٢) ..

وفى هذا الحادث يقول الكميت بن ثعلبة (٣) :

---

(١) الجردان — كالجوفان : قضيب الحمار.

(٢) فتح الميم هنا من باب المشاكلة لما قبلها ، وإلا فالواجـــب سكونها .

(٣) وهو غير الكميت بن معروف ، والكميت بن زيد ، والثلاثـــة من بنى أسد ، وأخبارهم فى المؤتلف ص ٢٥٧ .

نشدتك يا فزار وأنت شيخ
إذا خُيِّرت .. تخطئ فى الخيار (١)

أصيحانية أدمت بسمن
أحب اليك أم أير الحمار

بلى أير الحمار وخصيتاه
أحب إلى فزارة من فزار (٢)

ويقول فيه ابن دارة — أيضا — :

لا تأمنن فزاريا خلوت به
على قلوصك واكتبها بأسيار (٣)

---

(١) فزار — بفتح الراء — مرخم " فزارة " — وبكسرها على أن الأصل : " يا فزارى " ولا النافية مقدرة قبل تخطئ ، والأصل : " ألا تخطئ " على حد قوله تعالى : " تفتأ تذكر يوسف " أى :لاتفتأ.

(٢) " فزار " بكسر الراء .. وأصلها : فزارى ، كما سبق فى التعليق السابق ، وأصلها : فزارة ، فحذفت التاء .. فجرت الكلمة بالكسر ، وهو ترخيم فى غير النداء .

(٣) كتب الناقة : خاط فرجها .

لا تأمنه ، ولا تأمن بوائقـــــه
بعد الذى امتـــل أير العير فى النـ(١)ـار

أطعتم الضيف جوفانا مخاتلـــــة
فلا سقاكم إلهى الخالق البـ(٢)ـارى

وقد ذكروا أن بنى هلال بن عامر — أصحاب مادر — تنافـــروا هم وبنو فزارة إلى أنس بن مدرك الخثعمى ، وتراضوا به منفرا .

فقالت بنو عامر : يا بنى فزارة .. أكلتم أير الحمار !!!

فقال بنو فزارة : قد أكلناه ، ولم نعرفه ، ولكن منكم يا بنى هـلال من قرى (٣) فى حوضه ، فسقى إبله .. فلما رويت سلح فيه ومـــدره .. بُخْلًا به أن يشرب فضله .

---

(١) البوائق : جمع بائقة ، وهى المصيبة ، وامتل : حرك .
(٢) الجوفان : قضيب الحمار — كما سبق — ويلاحظ أن معنى هذا البيت لا ينطبق على القصة ، ولعل أصل البيت :
* طعمتم اللحم جوفانـــا مخاتلـــــة *
(٣) قرى : جمع .. أى : الماء فى الحوض .

فقضى أنس بن مدرك على الهلاليين ، فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير كانوا قد تراهنوا عليها .

والمثل يضرب في الحديث عن البخل والبخلاء .

* * *

٥ — تسمع بالمعيدى خير من أن تراه

ويروى "أن تسمع بالمُعَيْدِيّ .. الخ" .
وكذلك : "تسمع بالمعيدى .. لا أن تراه" .
والمختار : "أن تسمع .. إلخ" .
قال المفضل الضبى :

أول من قال ذلك : المنذر بن ماء السماء (١) . وكان من حديثه أن كبيش بن جابر — أخا ضمرة بن جابر — من بنى نهشل .. كان عرض لأمة لزرارة بن عدس (٢) .. يقال لها "رشية" — وكانت سبية أصابها زرارة من "الرُّفَيْدات" وهم حى من العرب (٣) — ، فولدت له عمرا ، وذؤيبا ، وبرغوثا .. فمات كبيش ، وترعرع الغلمة ، فقال لقيط بن زرارة : يا رشية .. من أبو بنيك ؟ قالت : كُبيش بن جابر .. قال : فاذهبى بهؤلاء الغلمة فغلسى (٤) بهم وجه ضمرة ، وخبريه

---

(١) ماء السماء : أمه .. لا أبوه ، وسميت بذلك لحسنها ، ويقال لأولادها بنو ماء السماء ، وهم ملوك العراق ، ووالد ابنها المنذر ، اسمه امرؤ القيس .
(٢) عدس — بفتح الدال وضمها — : ابن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي
(٣) ويسمى — أيضا — : رفيدة .. بالتصغير .
(٤) أى : سودى بهم وجهه .

من هم ؟ — وكان لقيط عدوا لضمرة — فانطلقت بهم إلى ضمرة .. فقال : ما هؤلاء ؟ قالت : بنو أخيك .. فانتزع منها الغلمة وقال : ألحقى بأهلك .. فرجعت .. فأخبرت أهلها بالخبر ، فركب زرارة — وكان رجلا حليما — حتى أتى بنى نهشل ، فقال : ردوا على غلمتى .. فسبه بنو نهشل ، وأهجروا له (١) ، فلما رأى ذلك انصرف ، فقال له قومه : ما صنعت ؟ .. قال خيرا .. ما أحسن ما لقينى به قومى !!!

فمكث حولا .. ثم أتاهم ، فأعادوا عليه أسوأ ما كانوا قالوا له .. فانصرف فقال له قومه : ما صنعت ؟ قال : خيرا .. قد أحسن بنو عمى وأجملوا ، فمكث على تلك الحالة سبع سنين .. يأتيهم فى كل سنة : فيردونه بأسوأ رد .

فبينما بنو نهشل يسيرون ضحى .. إذ لحق بهم لاحق فأخبرهم أن زرارة قد مات .. فقال ضمرة :

يا بنى نهشل : إنه قد مات حليم إخوتكم .. فاتقوهم بحقهم (٢) ثم قال ضمرة لنسائه : قمن أقسم بينكن الثكل .. وكانت عنده هند بنت كرب بن صفوان ، وامرأة يقال لها : خليدة .. من بنى عجل ، وسبية

---

(١) أى : خاطبوه بالهجر — بضم فسكون — من الكلام .

(٢) أى : اتقوا شرهم وانتقامهم بتسليم حقهم إليهم .

من عبد القيس ، وسبية من الأزد .. من بنى طمثان .. وكان لهن أولاد .. إلا خليدة — فلم يكن لها ولد — ، فقالت لهند — وكانت لها مصافية — : " ولى الثكل بنت غيرك " فأرسلتها مثلا .. فأخذ ضمرة شقة بن ضمرة ، وأمه هندا ، وشهاب بن ضمرة ، وأمه العبدية ، وعنوة بن ضمرة ، وأمه الطمثانية .. فأرسل بهم إلى لقيط بن زرارة ، وقال هؤلاء رهن لديك بغلمتك حتى أرضيك منهم .

فلما وقع بنو ضمرة فى يدى لقيط .. أساء معاملتهم ، وجفاهم وأهانهم ، فقال ضمرة بن جابر فى ذلك :

صرمت إخاء شقة يوم غول
وإخوته فلا حلت حلالى (١)
كأنى إذا رهنت بنى قومى
دفعتهم إلى الصهب السبال (٢)
ولم أرهنهم بدم ولكن
رهنتهم بصلح أو بمال

---

(١) الحلال — كالحلل — : جمع حلة — بضم الحاء ، وهى تتكون من ثوبين ، أو ثوب واحد له بطانة .

(٢) الصهب : جمع أصهب ، وهو شعر يخالط بياضه حمرة ، والسبال جمع سبلة ، وهى طرف الشارب ، والمراد : الرجال الموصوفون بذلك " وصهب السبال " : كلمة تطلق على الأعداء ، وإن لم يكونوا كذلك .

صرمت إخاء شقة يوم غـــــول
وحـــق وصـــال شقة بالوصـــــال

فأجابه لقيط :

أبا قطن إنى أراك حزينـــــا
وإن العجـــول لا تبالـــى حنينـــا
أفى أن صبرتم نصـــف عام لحقنـــا
ونحن صبرنـــا قبل سبع سنينـــا

فقال ضمرة .. يرد عليه :

لعمرك إننى وطلاب حـــبى
وترك بنى فى الشرط الأعـــ(١)ـــادى
لمن نوكى الشيوخ وكان مثلـــى
إذا ما ضل لم ينعش بعـــ(٢)ـــاد

---

(١) العمر — بفتح فسكون — ، كالعمر — بضم العين وسكون الميم وضمها — : الحياة ، والشرط — بوزن صرد — : جمع شرطة — بضم فسكون — وهى أول كتيبة تخرج للحرب ، وأعوان الملـــوك والرؤساء .

(٢) النوكى : جمع أنوك ، وهو الأحمق ، والعاد : جمع عادة ، وهى الديدن الذى تعوده الإنسان .

ثم إن بني نهشل طلبوا إلى المنذر بن ماء السماء أن يطلبهم من لقيط .. فقال لهم المنذر : نحوا عني وجوهكم .. ثم أمر بخمر وطعام ، ودعا لقيطا فأكلا وشربا فلما أخذت الخمر منهما قال المنذر للقيط يا خير الفتيان .. ما تقول في رجل اختارك الليلة على ندامى مضر ؟ .. قال : وما أقول فيه ؟ !! .. أقول : إنه لا يسألني عن شيء إلا أعطيته إياه .. غير الغلمة .

قال المنذر : أما إذا استثنيت فلست قابلا منك شيئا حتى تعطيني كل شيء سألتك .. قال : فذلك لك .. قال : فإني أسألك الغلمة أن تهبهم لي .. قال : سلني غيرهم .. قال : ما أسألك غيرهم .. فأرسل لقيط اليهم .. فدفعهم إلى المنذر فلما أصبح لقيط لامه قومه فندم .. ثم قال في المنذر :

إنك لو غطيت أرجاء هوة
مغمسة لا يستثار ترابها (١)

(١) السهوة : ما هبط من الأرض ، أو الوهدة الغامضة ، والمغمسة : العميقة البعيدة الغور .

بثوبــك فى الظلماء ثم دعوتنــى
لجئـت إليهـا سادرا لا أهابهـا
فأصبحت موجودا على ملومـا
كأن نضيت عن حائض لى ثيابها (١)

قال : فأرسل المنذر إلى الغلمة .. وقد مات ضمرة ، وكان صديقا للمنذر .. فلما دخل عليه الغلمة — وكان يسمع بشقة ويعجبه ما يبلغه عنه — فلما رآه .. قال : " تسمع بالمعيدى خير من أن تراه " .. فأرسلها مثلا .. فقال شقة : أبيت اللعن وأسعدك إلهك .. " إن القوم ليسوا بجزر — يعنى الشاء — إنما يعيش المرء بأصغريه لسانه وقلبه " (٢) ، فأعجب المنذر كلامه ، وسره كل ما رأى منه .

قال : فسماه " ضمرة " .. باسم أبيه .. فهو ضمرة بن ضمرة ، وذهب قوله :

" يعيش المرء بأصغريه " مثلا .

ويضرب المثل .. لمن خبره خير من مرآه .

* * * *

---

(١) وجد عليه : حقد عليه ، وأضمر له الكراهية ، ونضيت : رفعت ، وأزيلت .

(٢) راجع المثل رقم ٤٧٠٤ فى الميدانى .

٦ — أبصر من زرقاء اليمامة

قيل : " اليمامة اسمها ، وبها سمى البلد " قال : وذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد ، وأن اسمها عنز .

وكانت الزباء زرقاء ، وكانت البسوس زرقاء " .

وقال محمد بن حبيب : هى امرأة من جديس .. كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما قضت جديس على طسم خرج رجل من الطسم إلى حسان بن تبع .. فاستجاشه ورغبه فى الغنائم والفوز فأرسل إليهم جيشا .. فلما صاروا على ثلاثة أيام من " جَوّ " صعدت الزرقاء ، فنظرت إلى الجيش الذى حمل كل فرد منه غصن شجرة .. يستتر وراءه من عيون زرقاء ، فقالت : " يا قوم أتتكم الشجر " ، أو " أتتكم حمير " فلم يصدقوها ، فقالت :

أقسم بالله لقد دب الشجر

أو حمير قد أخذت شيئا يجر

فكذبوها ، فقالت : " أقسم بالله لقد أرى رجلا ينهش كتفا ، أو يخصف النعل " .. فلم يصدقوها ، حتى صبحهم حسان بجيشه فاجتاحهم ، وقبض على الزرقاء فشق عينيها .. فإذا فيهما عروق سود من الإثمد ، ويقال : إنها أول من اكتحل من العرب به ، وقد ذكرها النابغة فى قوله :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت

ويقول مرتع الأعشى: إلى حمام سراع وارد الثمد (١)

إذ أبصرت نظرة ليست بفاحشة

إذ رفَّع الآل رأس الكلب فارتفعا (٢)

قالت : أرى رجلا في كفه كتف

أو يخصف النعل .. لهفا أية صنعا (٣) ؟

فكذبوها بما قالت فصبحهم

ذو آل حسان يزجي السمر والسلعا (٤)

فاستنزلوا آل " جَوّ " من منازلهم

وهدموا شاخص البنيان فاتضعا (٥)

* * *

---

(١) بالتحريك ، وبسكون الميم ، وبوزن كتاب : الماء القليل .

(٢) الآل : السراب .

(٣) يخصف : يخرز .

(٤) يزجي : يدفع ويسوق ، والسمر : الرماح ، والسلع : شجر مر .. يريد الرماح القاتلة .

(٥) جو : هي اليمامة .

٧ — جـــزاء سنمـــار

سنمار هو مهندس رومى بنى قصر " الخورنق " فى مكان قريب من موضع الكوفة .. للنعمان بن امرئ القيس .. ملك الحيرة ، فلما أتمه ورآه النعمان يدعا فى البناء .. خشى أن يبنى المهندس لسواه مثله ، فدفعه من أعلى سطحه فمات .

وقيل : هو الذى بنى أُطُم أحيحة بن الجلاح ، فلما أتمه قال له أحيحة : لقد أحكمته ، فقال : إنى لأعرف فيه حجرا لو نزع لتقوض صرحه ، فسأله عن الحجر فأراه موضعه ، فدفعه أحيحة من أعلى الأطم فمات .

وفى ذلك يقول الشاعر :

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا
جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

ويقول الآخر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر
وحسن فعل كما يجزى سنمار

وتقدير المثل : جزانى جزاء سنمار .
يضرب لمن يجزى على الإحسان بالإساءة .

* * *

٨ ـ الحديث ذو شجون

أى الحديث ذو طرق .. والمفرد : شجن ، والشواجن : أودية كثيرة الشجر ، واحدتها : شاجنة ، وأول من قال هذا المثل .. ضبة ابن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ـ وكان له ولدان يسمى أحدهما سعدا ، والآخر سعيدا ـ وفى إحدى الليالى نفرت بعض إبله فوجه ولديه فى طلبها ، فاتجه كل منهما ناحية للبحث عنها ، فلقيها سعد فى طريقه فردها ، ولم يعلم بذلك سعيد ، فمضى يبحث عنها وكان عليه بردان .. فقابله رجل اسمه الحارث بن كعب ،فطلب منه برديه فأبى .. فقتله الحارث واستلبهما .

ومكث ضبة يهذى فى انتظار سعيد ، وكان كلما رأى شبحا فى الظلام صاح : أسعد أم سعيد ؟ ثم يأوى إلى فراشه يائسا .

وبعد أزمان متطاولة ذهب ضبة إلى مكة حاجا ، فمر بسوق عكاظ ، حيث قابل الحارث هناك ، ورأى عليه بردى ابنه سعيد ، فعرفهما ، ثم سأل الحارث عن البردين ؟ فأخبره بحقيقة الأمر فسأله : أقتلته بسيفك هذا ؟ قال : نعم ، قال أرنيه أنظر إليه ، فإنى أظنه صارما ، فسلمه الحارث إليه .. حيث هزه ،ثم أهوى به على عنق الحارث فقتله ، وقال : " الحديث ذو شجون " فقيل له : يا ضبة ، أفى الشهر الحرام ؟ فقال " سبق السيف العذل " فصارت كلماته الثلاث أمثالا .

والأول يضرب فى الحديث يتذكر به غيره ، وقد ذكر الفـــرزدق هذا المثل فى شعره إذ يقول :

لا تأمنن الحرب إن استعارهـــــــا
كضبـــة إذ قال : الحديث شجـــــون

ومن شعر الشيخ على بن الحسين القهستانى — وفيه مثـــلان — قوله :

تذكر نجدا و" الحديث شجـــــون "
فجن اشتيـــاقا و " الجنون فنـــــون "

* * *

٩ — رجع بخفي حنين

في أصل هذا المثل خلاف وروايات ذكرها الميداني وغيره .. بتفصيل وأرجح هذه الآراء وأنسبها — فيما أرى — : أن حنينا كان إسكافا من أهل الحيرة .. فساومه أعرابي في شراء خفين ، فاختلفا في تقدير ثمنهما ، وأغلظ الأعرابي الكلام للإسكافي .. فأصر حنين على أن يكيد له ، فراقبه حتى عرف اتجاه سيره فسبقه إلى الطريق ثم رمى بأحد الخفين ، وبعد مسافة طويلة — شيئا ما — رمى بالآخر ، ومكث قريبا منه يترقب ، فلما وصل الأعرابي إلى مكان الخف الأول رآه وعرفه وقال : لو كان الآخر معه لأخذته ، ثم تركه وسار حتى وجد الثاني فأخذه ، ثم ترك راحلته في ذلك المكان ، ورجع ليأتي بالأول ، فخرج حنين واستاق راحلته بما عليها ، وعاد الأعرابي إلى بلده بالخفين ، فقيل : رجع بخفي حنين .

ويضرب هذا المثل .. فيمن خاب سعيه ، وضاع جهده ، وآب بالخيبة وأتفه الأشياء .

* * *

١٠ – أطمع من أشعب

هو أبو العلاء أشعب بن جبير .. مولى عبد الله بن الزبير ، ومن أهل المدينة ، وكان يسمى " أشعب الطماع " ، وله كثير من النوادر التى تدل على جشعه وطمعه وتطفله ، وقد خفف آصار ذلك عنه أنه كان ظريفا مزاحا ، ومغنيا خفيف الروح ، ومن نوادره فى ذلك :

* * *

أ – اجتمع حوله بعض الغلمان وأخذوا يعابثونه ، فقال لهم : إن فى دار فلان عرسا ، وكان يقصد إلى إبعادهم عنه ، فلما ذهبوا ظن أن ما قاله لهم حق .. فانطلق إلى حيث أمرهم فلم يجد شيئا ، وعاد حزينا كاسف البال .

* * *

ب – خرج سالم بن عبد الله بن عمر مع بناته ونسائه وجواريه إلى مكان خارج المدينة ، فلما علم أشعب .. وافاهم فى موضعهم ، فوجد الباب مغلقا .. فتسور الجدار .. فقال له سالم : ويحك يا أشعب !! ، كيف تتسور على بناتى وحرمى ؟ ، فقال: " لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد (١) " ، فوجه إليه من الطعام ما أشبعه ، وحمل باقيه إلى منزله .

* * *

---

(١) الآية رقم ٧٩ من سورة " هود " .

جـ — قال أشعب : وهب لى غلام ، فجئت إلى أمى بحمار عليه حمل ثقيل من كل شىء ، ومعه الغلام ، فقالت أمى : ما هذا الغلام ؟ فأشفقت عليها من أن تموت فرحا إذا قلت : وهب لى .. فقلت لها : يا أماه ، وهب لى غين ، فقالت : وما غين ؟ قلت : لام ، قالت : وما لام ؟ قلت : ألف ، قالت : وما ألف ؟ قلت : ميم ، قالت : وما ميم ، قلت : وهب لى غلام ، فغشى عليها من الفرح ، ولو لم أقطع الحروف لماتت .

* * *

د — سئل مرة عن مبلغ طمعه ؟ فقال : ما نظرت قط إلى اثنين فى جنازة يتساران .. إلا قدرت أن الميت أوصى لى بشىء من ماله ، وما أدخل أحد يده فى كمه أمامى إلا ظننت أنه سيعطينى شيئا .

* * *

هـ — سئل مرة أخرى عما بلغ طمعه أيضا ؟ فقال : ما زفت امرأة بالمدينة إلا نظفت بيتى ، رجاء أن يغلط بها إلى .

* * *

و — مر برجل يصنع طبقا من الخوص ، فقال له : أحب أن تزيد فيه طوقا ، قال : ولم ؟ . قال : عسى أن يهدى إلى فيه شىء ..

* * *

ز — مر برجل يمضغ علكا ، فظن أنه يأكل ، وسار وراءه أكثر من ميل حتى عرف أنه علك .

* * *

ح — سئل مرة : هل رأيت أطمع منك ؟ قال : نعم .. امرأتى ، فإنها قالت لى : ما يخطر على قلبك من الطمع شىء يكون بين الشك واليقين .. إلا وأنا أتيقنه .

* * *

١١ — عند جهينة الخبر اليقين

خرج رجلان شابان .. أحدهما : اسمه الحصين بن عمرو الكلابي .. أو الحصين بن سبيع الغطفاني .. والآخر : الأخنس بن كعب الجهني ، فلما التقيا تعارفا ، واتفقا على أن يعملا قاطعي طريق ، ويستلبا من يقابلهما ، وبعد وقت مر بهما رجل فسلبا كل ما معه ، فقال : أعطياني بعض مالي ، وأنا أدلكما على غنيمة أكثر ، فأعطياه ، وأخبرهما بوجود رجل خلفه — من بني لخم — عاد من لدن بعض الملوك بكثير من الهدايا ، فاتجها إليه ووجداه يأكل ، وأمامه أشياء كثيرة ، فعرض عليهما الطعام ، فنزلا في حذر من بعضهما ، ثم أكلا وشربا ، وذهب الجهني إلى قضاء حاجة ثم عاد ، فوجد صاحبه قد قتل اللخمي فأنكر عليه قتل رجل طعما من طعامه ، فقال : قد خرجنا لذلك ، ثم أخذ الحصين يسأل الأخنس أسئلة يستدرجه بها إلى الغفلة ولكنه كان في حذر فلما سأله : ما تقول في العقاب الكاسر ؟ قال : وأين هي ؟ فرفع الحصين رأسه إلى السماء ، فوضع الأخنس طرف سيفه في نحره وقضى عليه ، ثم حمل متاعه ومتاع اللخمي واتجه إلى قومه ، ومر في طريقه ببطنين من قيس يقال لهما : مراح وأنمار ، حيث قابل امرأة اسمها : صخرة .. تنشد الحصين ورفيقه — ولم يكن معها أحد — فقال لها : لقد قتلته ، فقالت : كذبت ، لا يستطيع مثلك أن يقتل مثله ، ولو كان الحي هنا ما تكلمت بهذا ، فانصرف إلى قومه فأعطاهم ما معه ، ثم وقف بينهم يقول :

وكم من ضيغم وَرْدٍ هَمُوسٍ
أبى شبلين مسكنه العرين
علوتُ بياضَ مفرقه بعضب
فأضحى في الفلاةِ له سكون
وأضحت عرسه ولها عليه
- بُعيد هدوء ليلتها - رنين
وكم من فارس لا تزدريه
إذا شخصت لموقعه العيون
كـ " صخرة " إذ تسائل في " مراح "
و " أنمار " وعلمهما ظنون
تسائل عن " حصين " كل ركب
وعند " جهينة " الخبر اليقين
فمن يك سائلا عنه فعندى
لصاحبه البيان المستبين
جهينة معشرى وهم ملوك
إذا طلبوا المعالى لم يهونوا

والأصمعى وابن الأعرابى يقولان : هو " جفينة " وينشدان :

تسائل عن أبيها كل ركب
وعند جفينة الخبر اليقين

وقيل : هو " حفينـــة " بالحاء والفاء .

يضـــرب فيمن يعرف الأخبار على حقيقتها .

* * *

١٢ ـ الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن

قائلته : دختنوس بنت لقيط بن زرارة .. حيث تزوجت رجلا غنيا هو عمرو بن عمرو بن عدس ، وكان شيخا كبيرا ، ففركته وشنأته .. فطلقها ثم تزوجت فتى جميل الوجه ، يافع الجسم ، يانع الشباب، غير أنه فقير ، فلما أحست الحاجة أرسلت إلى زوجها القديم .. تطلب حلوبة ، فرد رسولها بقوله : " الصيف ضيعت اللبن " .. أى : فى الصيف ضيعت الخير ، فلما جاءها الرسول ضربت على منكب زوجها وقالت : " وهذا ومذقته خير " . فذهبت كل من الكلمتين مثلا .

ويضرب الأول لمن يطلب شيئا فوته على نفسه بسوء تصرفه ، والثانى لمن يقنع باليسير إذا عز الخير .

* * *

١٣ — كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟

ويضرب هذا المثل لمن لا يفى بالعهد .

وقيل إن أصله فيما حكت العرب : أن أخوين كانا يرعيان إبلهما فى مرعى لهما فأجدب ، وكان بالقرب منهما واد خصيب يتوقاه الناس ، لأن به حية ضخمة تحميه ، وتؤذى كل من ينزل فيه ، فعرض أحدهما على أخيه أن ينزل فى وادى الحية ليرعى إبله ، فخوفه ، ولكنه لم ينثن ، ونزل بهذا المكان ، فنهشته الحية فمات ، فثار أخوه لذلك ، وحلف : ليهلكن الحية مهما كان من ظروف ، ثم ذهب إليها وطلب أن تخرج إليه ليقتلها ، فذكرته بأنها قتلت أخاه ، وأن باستطاعتها أن تقتله ، ولكنها تعرض عليه الصلح ، على شرط أن تعطيه كل يوم دينار فقبل وتعاهدا على ذلك ، واستمرت تعطيه كل يوم ، حتى اغتنى وكثرت ثروته ، وفى لحظات فكرية تذكر أخاه ، فهاجت أعصابه ونسى عهده ، وقرر قتل الحية ، وفعلا أخذ فأسه وجلس يترقبها ، فلما مرت به تبعها وضربها ، فأخطأها وهربت إلى جحرها ، وكانت فأسه قد سقطت على فم الجحر ، فهدمت مدخله ونتج عن ذلك عودة العداء بينهما ، وقطع الدينار عنه ، فخاف شرها ، وندم أشد الندم ، وعرض عليها أن يعودا ثانية إلى وضعهما الأول ، فقالت : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ .

* * *

وفى هذا المثل يقول شاعر العربية الفرزدق :

وإنى لألقــى من ذوى الغــى منهـــم
وما أصبحــت تشكو من الشجــو ساهــره

كما لقيت ذات الصفــا من حليفهـــا
وكانت تريه المال غبــا وظاهـــره (١)

فلما رأى أن ثمر الله مالـــــه
وأثل موجودا وسد مفاقـــــره

أكــب علــى فأس يحــد غرابهـــا
مذكــرة من المعـــاول باتـــرة (٢)

فقام لها من فوق جحــر مشيـــد
ليقتلها أو يخطــئ الكف بـــادره

فلما وقاها الله ضربـــة فأســه
وللشــر عين لا تغمـــض ناظـــره

فقال : تعالى نجعــل الله بيننـــا
على مالنا أو تنجــزى لى آخـــره

فقالت : يمين الله : أفعــل إننـــى
رأيتك مشئوما يمينك فاجـــره

أبى لى قبر لا يزال مقابلـــى
وضربة فــأس فــوق رأسى فاقـــره

ويضرب هذا المثل ٠٠ فى وجوب الحذر من العدو الغادر٠

(١) ذات الصفا : الحية (٢) الغراب : الحد ٠ومذكره : مسنونة ٠

٣ — من الوصايا :

أ — وصية أكثم بن صيفي التميمي لقومه وبنيه (١) :

يا بني تميم :

لا يفوتنكم وعظي . إن فاتكم الدهر بنفسي (٢) ، إن بين حيزومي (٣) وصدري لكلاما لا أجد له مواقع إلا أسماعكم (٤) ، ولا مقار إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية .. تحمدوا مغبته .

الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم

---

(١) راجع شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة جـ٤ ، وسرح العيون ، وجمهرة الأمثال جـ٢ ، وجمهرة خطب العرب جـ١ .

(٢) الوعظ : التذكير بما يلين القلوب ، كالنصح والإرشاد والتوجيه ، والنفس : الروح أو الجسد ، أي : إذا مت .

(٣) الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جهة الصدر .

(٤) الأسماع : جمع سمع ، والمراد بها : الآذان ، أو حسها ، والسمع يكون للواحد والجمع ، وجمع الجمع : أسامع .

معقول (١)، والنفس مهملة (٢) والروية مقيدة (٣).. ومن جهة التوانى وترك الروية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشدا (٤)، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل (٥)، ومن سمع سمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع.

---

(١) الشهوات: جمع شهوة، وهى الرغبة، شهية: كرضية، وشهاء: كدعاء، واشتهاه، وتشهاه.. أحبه ورغب فيه، ومطلقة: غير مقيدة ولا محدودة. أى: مستجاب لها، منفذة فى سرعة، والحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بثقة، ومعقول: محبوس.

(٢) النفس: الروح، أو الجسد، وإهمالها: عدم تهذيبها وتربيتها وصقلها على الفضيلة والرجولة.

(٣) الروية: اسم للتفكير والنظر، من قولهم: رويت — بتشديد الواو — وأرويت فى الأمر.. أى: نظرت وفكرت.

(٤) التوانى: التباطؤ والإهمال، ويعدم: مضارع عدم.. كعلم: عدما — بضم فسكون، أو بضمتين أو بالتحريك — أى: فقد.

(٥) المداحض جمع مدحضة، وهى المزلة، ومكان دحض — بفتح فسكون ويحرك — أى: زلق — كدحوض، والمراد: أماكن الزلل.

ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام [١]، وعلى الاعتبار طريق الرشاد [٢]، ومن سلك الجَدَد أمِن العِثار [٣]، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، ويورث غيظه، ولا تجاوز مضرته نفسه.

يا بني تميم :

---

(١) اعتبرت : من اعتبر. إذا فكر ونظر واتعظ — أي : بحثت ونظرت، والمحن : جمع محنة .. أي : مصيبة : وهي اسم للمحن — بفتح فسكون — : بمعنى الامتحان والاختيار، ومواقعها : أماكن وقوعها، والمقاتل : جمع مقتل، وهو مكان القتل، والكرام : العظماء من الناس، يقول أبو تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى .. فالسيل حرب للمكان العالي

(٢) الاعتبار : الاتعاظ والتفكير، والرشاد — كالرشد — بضم ففتح والرشد — بالتحريك — : الاستقامة والاهتداء، والفعل كنصر وفرح .

(٣) الجدد : كالجد — بفتح فسكون، والجدة — بكسر الأول — : وجه الأرض، والأرض الغليظة المستوية، والرملة الرقيقة، والمراد الثاني أو الثالث والعثار : الكبوة، وفعله كضرب ونصر وعلم وكرم .. عثرا — بفتح فسكون — وعثيرا — بفتح فكسر — ، ومثله التعثر .

الصبر على جَرْع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة (١)، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم (٢)، وَكَلْمُ اللسان أنكى من كلم السنان (٣)، والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفم (٤)، فإذا نجمت فهى أسد مُحَرَّبٌ .. أو نار تلهَّب (٥)، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز، ونفاذ الرأى فى الحرب أجدى من الطعن والضرب (٦).

---

(١) الجرع : مصدر جرع الماء — كسمع ومنع : إذا بلعه، والمراد هنا البلع بكراهية وصعوبة، والحلم : الأناة والعقل، وعليه قوله تعالى "أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟" وأعذب : ألذ وأشهى، والجنى: الاقتطاف والأخذ ويروى :جناء، والندامة : مصدر ندم — كفرح — ندما وندامة .. إذا أسف، وفى التعبير استعارة مكنية، شبهت فيها الندامة بشجرة مرة الثمر، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه، وهو الثمر.

(٢) الجملة : كناية عن البخل والشح، وفى هذا المعنى يقول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم

(٣) الكلم : الجرح، والمراد : الشتم والسفه، وفى ذلك يقول الشاعر :

جرحات السنان لها التئام .. ولا يلتام ما جرح اللسان

(٤) مرهونة : محبوسة .. خفية، وتنجم : تطلع وتخرج، والفم .. مثلث الفاء، وبفتحها مع تشديد الميم، وأصل الفم : فوه — بضم فسكون —، بدليل الجمع على أفواه، وهذا التحويل اعتباطى.. أى : بدون علة، وقيل : يجمع أيضا على أفمام.

(٥) محرب — بالتضعيف : من حرب — كفرح — إذا كلب — بكسر اللام — واشتد غضبه، فهو حرب — بفتح فكسر — من حربى — بفتح فسكون.

(٦) فى هذا المعنى يقول الشاعر :

الرأى قبل شجاعة الشجعان .. هو أول وهى المحل الثانى

ب ـ وصية الحارث بن كعب لبنيه (١) :

يا بنى .. قد أتت على مائة وستون سنة .. ما صافحت (فيها) يمينى يمين غادر (٢) ، ولا قنعت لنفسى بخلة فاجر (٣) ، ولا صبوت بابنة عم ولا كنّة (٤) ، ولا بحت لصديق بسر (٥) ، ولا طرحت عن موسـة

---

(١) هو الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد ـ وقيل .. بن عمر بن علبة بن جلد ـ بن مالك ابن أدد المذحجى ـ ومذحج : هى أم مالك بن أدد ـ بالتنوين ولم يمنع من الصرف مثل عمر وزفر ، مع أنه على وزنهما .. نسب ولد مالك إليها ـ وكانت هـذه الوصية حين حضرته الوفاة .. كما فى أمالى المرتضى (١ : ٢٣٢) .

(٢) فى أمالى المرتضى : " وقد أتى على ستون ومائة سنة ، ما صافحت بيمينى .. إلخ " ، والزيادة التى زدناها للربط بالضمير .

(٣) الخلة : ـ بضم الخاء : الصداقة فى العفاف والدعـارة ، وهى أيضا : الصديق .. ذكرا كان أو أنثى .. مفردا أو مثنى أو جمعا ، وفى أمالى المرتضى : " ولا قنعت نفسى .. الخ " ..

(٤) الصبوة : رقة الحب ، والكنة : امرأة الابن ، أو زوجة الأخ ، والجمع : كنائن .

(٥) باح بالسر : نشره وأذاعه .

قناعا (١) ، ولا بقى على دين شعيب = أو قال على دين عيسى بن مريم (٢) = من العرب غيرى ، وغير تميم بن مرة ، وأسد بن خزيمة .. فموتوا على شريعتى ، واحفظوا وصيتى (٣) .. وإلهكم فاتقوا ، يكفكم ما أهمكم (٤) ، ويصلح لكم حالكم ، وإياكم ومعصيته (٥) ، فيحل بكم الدمار ويوحش منكم الديار ..

---

(١) الموسة : البغى الفاجرة ، والجمع : موسات ، ومواميس ، وأومست : أمكنت ، من الومس — بفتح فسكون — وهو الاحتكاك . والعبارة فى أمالى المرتضى : " ولا طرحت عندى مومسة قناعها ، ولا بحت لصديق بسر " والقناع : ثوب تغطى به المرأة رأسها ، ومثله المقنع والمقنعة — بكسر الميم وفتح النون فيهما — غير أن الأول أوسع منهما .

(٢) فى أمالى المرتضى : " وإنى لعلى دين شعيب النبى عليه السلام ، وما عليه أحد من العرب غير .. وغيرى أسد بن خزيمة وتميم بن مرة " .

(٣) فى أمالى المرتضى : " فاحفظوا وصيتى ، وموتوا على شريعتى " والشريعة : الدين المشروع .

(٤) يكفكم : مضارع مجزوم فى جواب الأمر ، بحذف الياء ، وأهمكم : شغلكم ، واهتممتم به من شئونكم .

(٥) إيا : منصوب بفعل محذوف وجوبا ..على التحذير ، وأحسن التقديرات هى : احذروا التقاءكم ومعصيته ، وتروى : " ومعصية الله " .

(يا بنى) .. كونوا جميعا ، ولا تفرقوا فتكونوا شيعا [١] ، وبزوا قبل أن تبزوا [٢] ، فموت فى عز : خير من حياة فى ذل وعجز [٣] .. وكل ما هو كائن : كائن [٤] ، وكل جمع : إلى تباين [٥] ..

والدهر ضربان .. ضرب بلاء ، وضرب رخاء [٦] ، واليوم يومان .. يوم

---

(١) الزيادة بين المعقوفين من أمالى المرتضى ، وجميعا : أى : مجتمعين أو الجميع — كالجمع — : جماعة الناس — أى : كونوا جماعة ، والشيع جمع شيعة أى : فرقا وأحزابا منقسمين .

(٢) بزوا .. أى : اسلبوا ، وتبزوا : تسلبوا ، والمراد : اغلبوا وانتصروا بمعنى : أعدوا عدتكم لتنتصروا دائما ، وهذه الجملة لم ترد فى أمالى المرتضى .

(٣) عبارة أمالى المرتضى : " وإن موتا فى عز .. الخ " ، وفى هذا المعنى يقول عنترة :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة
بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم
وجهنم بالعز أطيب منزل

ويقول المتنبى :

ذل من يغبط الذليل بعيش
رب عيش أخف منه الحمام

ويقول أيضا :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم .. بين طعن القنا وخفق البنود
واطلب العز فى لظى ودع الذل وإن كان فى جنان الخلودا

(٤) كائن الأولى — بمعنى : مقدر — : خبر " هو " ، والجملة : صلة ما ، " وكائن " الثانية :— بمعنى واقع — خبر " كل " .

(٥) إلى تباين — بمعنى : تفرق وانفصال — : متعلق بمحذوف خبر " كل " .

(٦) الضرب : الصنف ، ومثله : الضريب والمضروب ، والبلاغ : الشقاء =

حبرة ، ويوم عبرة [١] ، والناس : رجلان .. رجل لك ، ورجـــل عـليك [٢] ..

زوجوا النساء .. الأكفاء [٣] .. وإلا فانتظروا بهن القضـاء [٤]

= والرخاء : سعة العيش ، والفعل ككرم ، ودعا ، ورعى ، ورضى — فهو رخى — بوزن فعيل ، وراخ — بوزن قاض — ، وفى أمالى المرتضى : " الدهر صرفان .. فصرف رخاء وصرف بلاء " ، والصـــرف : التصرف .

(١) فى أمالى المرتضى : " فيوم حبرة — إلخ " بتنوين " يوم " فى المرتين ، والحبرة — بسكون الباء وفتحها — : الفرح والسرور ، ومثلهما الحبر — بفتح فسكون — والحبور ، والعبرة : الدمعة قبل أن تفيض ، أو : تردد البكاء فى الصدر ، أو : الحـــزن بلا بكاء .

(٢) فى المرتضى : " فرجل معك .. إلخ " .

(٣) فى المرتضى : " وتزوجوا الأكفاء " جمع كفء — مثلثة الكـاف — كالكفاء والكفأة والكفىء والكفوء . وهو المماثل المناظر ، وما هنا أدق مما فى المرتضى .

(٤) أى : الموت عوانس ، وهذه الجملة ليست فى المرتضى .

وليكن أطيب طيبهن الماء (١)، وإياكم والورهاء (٢).. فإنهـــــا أدوأ الداء (٣)، وإن ولدها إلى أفن يكون (٤)..

لا راحة لقاطع القرابة (٥)، وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم (٦)،

---

(١) عبارة المرتضى: "وليستعملن فى طيبهن الماء".

(٢) الورهاء: الحمقاء — من وره — كفرح — إذا حمق — فهو أوره" وعبارة المرتضى: "وتجنبوا الحمقاء".

(٣) أدوأ: أشد، والعبارة ساقطة من المرتضى.

(٤) الأفن: يسكون الفاء.. ويحرك —: ضعف الرأى والعقل، وعبارة المرتضى: فإن ولدها إلى أفن ما يكون.

(٥) عبارة المرتضى: "إلا أنه لا راحة.. إلخ".

(٦) أى: مكنوه من هزيمتهم، أو من التدخل بينهم، وفى المرتضى زيادة "منهم" فى آخر الجملة..، ومعناها الآيــــة: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم".

وآفة العدد اختلاف الكلمة (١) . .

والتفضل بالحسنة يقي السيئة (٢) ، والمكافأة بالسيئة دخـول فيها (٣) ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث الهم (٤) وانتهاك الحرمة يزيل النعمة (٥) ، وعقوق الوالدين يعقب النكـــد ،

---

(١) هكذا " العدد " في أمالي المرتضى ، وفي جمهرة أشعار العرب (١٢٢:١) : " وآفة العدو " ، ولاشك أنها تحريف لم يفطن له الناقل عن شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة (١٥٤:٤) .

(٢) التفضل : التبرع . وبقي : يمنع ، وبمعنى هذه الجملة الآية : " إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين " .

(٣) في المرتضى : " .. الدخول فيها " بالألف واللام .. يعنـــي أن العفو أفضل من جزاء السيئة بمثلها .

(٤) السوء — بضم السين : اسم للإساءة ، " والنعماء — كالنعمى ، والنعمة — : اليد البيضاء الصالحة .. والسرور ، والرحـــم — بفتح فكسر — كالرحم — بكسر فسكون : القرابة ، أو أصلها ، أو أسبابها ، وتورث : تخلف وتعقب ، وفي المرتضى : " العمـــل السوء .. الخ " .

(٥) الحرمة — بضم فسكون ، وبضمتين وبوزن همزة — : ما لا يحـــل انتهاكه .

ويخرب البلد ، ويمحق العدد ،

والإسراف فى النصيحة هو الفضيحة (١) ، والحقد يمنع الرفد (٢) ولزوم الخطيئة يعقب البلية ، وسوء الرِّعة يقطع أسباب المنفعة (٣) ، والضغائن تدعو إلى التباين (٤) . .

يا بنى . . إنى قد أكلت مع أقوام وشربت (٥) ، فذهبوا وغبرت (٦)

(١) الفضيحة : كشف المساوىء ، والمعايب وإظهارها ، ويقول الشافعى رضى الله عنه : من نصح أخاه سرا فقد نصحة وزانه ، ومن نصحه جهرا فقد فضحه وشانه " وفى المرتضى : " والنصيحة تجر الفضيحة " .

(٢) الحقد ، إسرار العداوة فى القلب ، والتربص للبطش بالعـدو ، والرفد : العطاء والصلة .

(٣) الرعة : بالكسر — حسن الهيئة أو سوءها — ضد . والمقصود هنا : الطريقة والسلوك والسير .

(٤) الضغائن : جمع ضغينة ، وهى — كالضغن . . بكسر فسكون — : الحقد ، والتباين : الانفصال والانقطاع .

(٥) كناية عن المعاشرة والمخالطة والرؤية لكثير من الخلائق . . لأنه كان من المعمرين ، ومن أول " يابنى " حتى الشعر : محـذوف فى أمالى المرتضى .

(٦) غبر : بمعنى ذهب وبقى ، ضد ، والمراد : المعنى الثانى — أى ماتوا وتركونى .

وكأنى بهم قد لحقت .. ثم قال :

أكلتُ شبابى فأفنيتُــهُ .. وأبليت بعد دُهورٍ دُهــورا (١)

ثلاثة أهلين صاحبتهــم .. فبادوا وأصبحت شيخا كبيرا (٢)

قليل الطعام عسير القيــا .. م قد ترك الدهر خطوى قصيرا (٣)

أبيت أراعى نجـوم السماء .. أقلب أمرى بطونا ظهــورا (٤)

---

(١) فى المرتضى : " وأفنيت بعد دهور .. إلخ "، وأكلت : أى : أذهبت وأمضيت ، وفى العبارة : استعارة تبعية .. فى " أكلت" أو مكنية فى " الشباب " وأبلى : أخلق وأفنى ، والدهور — هنا — : الأعوام الكثيرة .

(٢) ثلاثة أهلين : أى : ثلاثة أجيال .. هى : جيله ، وجيل أبنائه ، وجيل أحفاده ، وبادوا : هلكوا وفنوا .

(٣) عسير : صعب ثقيل .. وهو وما قبله من إضافة الوصف لفاعلــه والأوصاف الثلاثة كناية عن ضعفه وكبر سنه .

(٤) أراعى النجوم : أراقبها وانتظر تغيبها ، وهذا كناية عن أنــه يسهر كثيرا ولا ينام ، وهكذا شأن المسنين ، وتقليب الأمــر : التفكير فيه ، وبحثه من جميع جوانبه .. أى : أدبره ظاهــرا وباطنا .

* * * *

(٣) ومن النثر الذى ذاع وعرف فى الجاهلية ما كان يسمى (١) " بسجع الكهان " ، والكهان فئة من أهل الجاهلية ، كانوا يدعون الاطلاع بالغيب ، وكان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم يأتون هؤلاء الكهان ويستشيرونهم فى كل أمورهم ، كالسفر ، والقتال ، والتهم وما إلى ذلك .

وكان هؤلاء الكهان يسوقون فى أقوالهم عبارات مسجوعة غامضة ، وغالبا ما كانوا يضمنونها ما زعموه من علم الغيب ، وكان بعض العرب يصدقون تلك الأباطيل والمعتقدات المنحرفة حتى جاء الإسلام فنهى عن إتيان أولئك العرافين والكهنة ، وقرر أن علم الغيب من الأمور التى استأثر بها الله سبحانه وتعالى وحده .

* * * *

---

(١) راجع تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) للدكتور شوقى ضيف ص ٤٢٠ وما بعدها .

وعن سجع الكهان يقول الدكتور شوقى ضيف :

" كانت فى الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعـــرف ما يأتى به الغد بما يلقى إليها توابعها من الجن ، وكان واحدهـــا يسمى كاهنا كما يسمى تابعه الذى يوحى إليه باسم " الرئى " ، وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينيـــة ، وكانوا يلجأون إليهم فى كل شئونهم ، وقد يتخذونهم حكاما فى خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأميـــة ابن عبد شمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعى ، وقد نفر هاشمـــا على أمية . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نحـر ناقة ، أو قعود عن نصرة أحـــلاف ، أو نهوض لحرب ، ففى أخبار بنى أسد أن حجرا أبا امرىء القيس رق لهم فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامـــة تكهن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبنى أسد : " يا عبـادى ! قالوا لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلـب ، فى الإبل كأنها الربرب (١) ، لا يعلق رأسه الصخب ، هذا دمـــه ينثعب (٢) ، وهذا غدا أول من يسلب ، قالوا : من هو يا ربنـــا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجر ضاحيـــة . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجــر

---

(١) الربرب : القطيع من الظباء .
(٢) ينثعب : يسيل .

فهجموا على قبته " وقتلوه . وكثيرا ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر، كما كانوا كثيرا ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم .

فمنزلة كهانهم فى الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التى تجاورها ، ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة ، ومما يلاحظ أنهم كانوا يكثرون فى اليمن وفى بيوت عبادتها الوثنية ، وخاصة من يتعمقون فى القدم ، ولعل فى ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال ، وتلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القصاص فيرسمون لبعضهم صورا خيالية ، فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ، ورجل واحدة ، وأن سطيح بن ربيعة الذئبى لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق ، وربما كان أحدب، ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سواد بن قارب الدوسى وقد أدرك الإسلام ودخل فيه ، ومنهم المأمور الحارثى ، كاهن بنى الحارث بن كعب وخنافر الحميرى ، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه " شصار " ، وأكهنهم عزى سلمة ، يقول الجاحظ : " أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبى حية وهو الذى يقال له عزى سلمة " . ومن قوله : " والأرض والسماء ، والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بنى العشراء للمجد والسناء " (١) . ونجد

---

(١) الصقعاء : الشمس ، بقعاء : ماء أو موضع . نفر : حكم بالغلبة . بنو العشراء : عشيرة من فزارة . السناء : الرفعة .

بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات ، وربما كن فى الأصل من النساء اللائى يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها ، ومن أشهرهن الشعثاء وكاهنة ذى الخلصة ، والكاهنة السعدية ، والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية ، وزبراء كاهنة بنى رئام ، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت : " واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو ختلا ، ويحرق أنيابا عصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا (١) " .

ونحن لا نطمئن إلى ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على ألسنة هؤلاء الكهان والكاهنات ، فإن بعد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلى يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال ، إذ من الصعب أن تروى بنصها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان . وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت فى أذهان من تحدثوا عن الكهان والكاهنات فى الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كلامهم ، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعا على شاكلة ما رويناه من أقوالهم . ومعنى ذلك أنه وجد فى العصر الجاهلى سجع كان يقوله الكهان ، وقد اختلط الأمر على بعض قريش فى أول نزول الذكر الحكيم ، فقرنوه بسجع كهنتهم ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جل وعز :

---

(١) اللوح هنا : الريح . الوادق : الممطر ، يأدو : يختل ، يحرق أنيابا عصلا : كناية عن الغضب والشر ، عصلا : معوجة ، الطود : الجبل ، المعل : الملجأ . انظر الأمالى ١/١٢٦ .

(ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى : " فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن " وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) .

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع الحديث المروى عن أبى هريرة ، فقد حدث أنه " اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما فى بطنها فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله أن دية جنينها غرة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها (١) . فقال حمل بن النابغة الهذلى : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل (٢) ، فمثل ذلك يطل (٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذى سجع " . ويقول الجاحظ : " كان حازى (كاهن) جهينة وشق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع " .

وإذا صح أن ما يروى فى كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب ، بل كانوا يعمدون أيضا إلى ألفاظ غامضة مبهمة ،

---

(١) عاقلة المرأة : عصبتها الذين يتضامنون معها فى دفع الدية .
(٢) استهل : صاح .
(٣) يطل : يهدر دمه .

حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه ، ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضحوا ، بل دائما يأتون المعاني من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحا واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبئهم الذي يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التي تخدع السامع وجوها من الخدع ، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم ، فإنه يلاحظ عليه أيضا كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحا خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الديني كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر في خطابتهم بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم . ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء"(١) .

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ص ٤٢٠ — ٤٢٣ .

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وعلى آلــــه وأصحابه ومن والاه .

وبعـــــد :

فهذه هي رحلتنا مع الأدب الجاهلى ، وتلك هــى معايشــتنا لبعــض نصوصه المختارة ، ومعالجتنا لها معالجة فنية ، ودراستنا لها دراسة أدبية تحليلية استقصائية ، دراسة أمكننا أن نســتخلص منــها مجموعــة مــن المقومات والخصائص يجدر بنا أن نسجلها فى هذه الدراســـة كإشــارات مضيئة وموجهة على طريق دراســـة الأدب الجــاهلى بصفــة عامـــة ، والنصوص الجاهلية بصفة خاصة .

ولقد ضم الكتاب مختارات مما جادت به قرائح بعض أدبــاء العصــر الجاهلى ، وإننا لعلى يقين من أن تنويعنا للنصوص المختارة إنمــا كــان القصد منه أن يجد القارئ ما يوضح له الكثير عن الحركة الأدبية فى هـذا العصر الذى يعد من أهم العصور الأدبية .

والحق أننا قد أفدنا من كل ما كتب حول الأدب الجاهلى من قريب أو بعيد ، وكانت مصادرنا الأولى التى اعتمدنا عليها هى أمهات الكتب التــى تعرضت للأدب الجاهلى بصفة بعامة ، ونصوصه الشـــعرية والنثريـــة بصفة خاصة .

وحسبنا أننا حاولنا جاهدين فى هذه الدراسة أن نكون موضوعيين قدر الطاقة ، وأملنا أن نوفق لتحقيق الغاية وإصابة الهدف .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الأستاذ الدكتور

طلعــت صبــح الســـــيد

فهرس الموضوعات

* * *